وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف– المسيلة–

كلية: الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

المقياس: مدخل إلى الأدب العالمي

المستوى: السنة الثانية ليسانس/ دراسات لغوية

الأستاذة: أسماء غجاتي.

ملاحظة: ستتم إعادة النظر في عدد محاضرات هذا المقياس على مستوى الحصص الحضورية.

الأدب العالمي:

مدخل:

يستخدم مصطلح الأدب العالمي (عموما) للدلالة على الأدب الذي ارتقى إلى مستوى العالمية، واجتاز الحدود بين الدول، وترجم إلى كثير من لغات العالم، وحقق انتشارا واسعا، وشهرة كبيرة، بفضل ما يمتلك من خصائص فنية، تتمثل في تصويره لبيئته، وتعبيره عن قضايا الإنسان مثل: أدب وليام شكسبير، أو تولستوي، أو أرنست همنغواي، أو غابرييل غارسيا ماركيز، وغوغول، ولوركا.

ويمكن الإشارة هنا إلى محدودية هذا التعريف، لعدم كفاية الأسس الموضحة لتصنيف أي عمل على أنه أدب عالمي، ذلك أن القيمة الفنية له ومدى تأثيره وتنمية البشرية بشكل عام وتأثيره على الأدب القومي بشكل خاص تعتبر أيضا عوامل هامة لمثل هذا التصنيف. ثم إن الاتفاق على معايير مقبولة عالميا لتقرير ما هي الأعمال ذات التصنيف الأدبي العالمي ليس بالأمر السهل.

ويعتبر الكاتب الألماني غوته أول من بشر بظهور أدب عالمي تشترك فيه كل الأمم، وتساهم فيه شعوب الأرض قاطبة، فيعبر عن قيمها ومبادئها وآمالها وآلامها، حيث يقول:"أدرك أكثر فأكثر أن الشعر ملك مشترك للإنسانية[...] إن الأدب الوطني ليس له شأن مهم، فوقتنا هذا هو وقت الأدب العالمي، وعلى كل واحد أن يساهم في هذا التطور، إنه من الحلو- بحيث التعامل والعلاقات بين الفرنسيين والإنجليز تتحسن أكثر فأكثر- أن يصحح بعضنا البعض".

فيلاحظ أن العالمية عند غوته وسيلة ناجعة لتحقيق التواصل الإقليمي بين الدول الأوروبية المتجاورة، بل إنها أداة جيدة لتصحيح المفاهيم السلبية والأحكام المسبقة تجاه بعضنا البعض، كما وضح غوته أن العامل الحاسم لعالمية الأدب القومي، هو امتداده الزمني والمكاني خارج حدوده المحلية وتقاطعه الثقافي مع غيره من الآداب.

وقد لقيت عالمية غوته هذه رواجا كبيرا، بل إنها اقترنت باسمه واقترن اسمه بها، حيث استحسنها البعض وعارضها آخرون، كما تحفظ عليها البعض، ففكرة توحيد الآداب العالمية تبقى مثالية كما إنها مضادة للنزعة الفردية القومية.

كما إن النموذج الموحد الذي سعى غوته إلى توحيد آداب العالم تحت لوائه هو النموذج الأوربي، وهذا ما يعزز المركزية الأوربية.

ثم إنه يجب الإشارة إلى أن مصطلح Weltliteratur الذي وضعه غوته كان من أكثر المصطلحات إثارة للجدل، حيث ترجم في الإنجليزية إلى (Literature of The World) أي (أدب العالم)، وفي اللغة العربية إلى (عالمية الأدب) حينا وإلى (الأدب العالمي) حينا آخر، وقد أخذ مصطلح Weltliteratur معنيين هما:

1- **الأدب العالمي:** هو روائع الأدب الخالدة Master Pièces التي تحدث الزمن بروعتها الأدبية، ومضامينها الإنسانية العميقة مثل: ألف ليلة وليلة، ملحمة جلجامش، الإلياذة، أوديب ملكا...

2- **عالمية الأدب:** هي توحيد آداب العالم في قالب أدبي موحد يتضمن جماليات شكلية وأسلوبية محددة، ويتضمن أفكارا ثابتة أو متفق عليها بحسب غوته.

ومثلما سبق الذكر فإنّ تصنيف الأدب في هرم العالمية ليس بالأمر السهل، وفي هذا الصدد يجب الإشارة إلى جهود المقارنين وعلى رأسهم (حسام الخطيب) الذين وضعوا جملة من المعايير التي يحتكمون إليها لترسيخ أدب ما للعالمية، وقد قسّموا تلك المعايير إلى معايير أدبية ومعايير غير أدبية.

أمّا الأولى فهي: الجودة الفنية، والترجمة، والمقروئية، أو التلقي النقدي.

وأما الثانية فهي: قوة الدولة وهيمنتها، وتفوقها الحضاري الذي يجعلها تسعى لأن تفرض أدبها على مستوى عالمي.

المحاضرة الأولى

الأدب اليوناني: ملحمتا الإلياذة والأوديسا لهوميروس

1-عن الأدب اليوناني:

يعد الأدب الأوروبي القديم القاعدة الصلبة التي استندت عليها سائر الآداب الأوربية طيلة مسيرتها عبر العصور المختلفة لذا أسماه النقاد (النص المؤسس)، وذلك لأن أفكار القدماء تعد النموذج الأول، ولأنهم -اليونان خاصة- أعطوا الأسماء الأولى لكل أشكال وألوان التفكير العلمي، ولكل نوع من أنواع الفن والأدب.

المحطات التاريخية للأدب اليوناني:

قطع الأدب اليوناني القديم مرحلة طويلة من التطور قبل أن تكتمل أشكاله الأدبية التي وصلت إلينا، فقد شغلت الأساطير اليونان في المرحلة الابتدائية من تفكيرهم ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك، وهي تسمى بمرحلة ما قبل النص الأدبي أو مرحلة ما قبل الأدب، وأعقب الأساطير مرحلة تغنى فيها اليونان.

ببطولاتهم القومية ومغامر ملحمتي هوميروس الخالدتين، وبعد ذلك استأثر حب المسرح بأدباء اليونان فاتخذوه وسيلة للكشف عن مصير الانسان ومعالجة قضاياهم الفكرية والفنية والاجتماعية.

2-عن أدب الملاحم:

الملحمة:F:/ E: epopee epic

قصة شعرية طويلة، تتجلى فيها بطولة الحرب والقتال، فهي تتناول صراعا بين أمتين أو بين ثنائيتين.

- أبطالها أسطوريون (آلهة وأنصاف آلهة).
- تعتمد على العجائب والخوارق.
- تتضمن الكائنات الغيبية والممسوخة (الشياطين والوحوش المخيفة بل وحتى الظواهر الطبيعية).
- عليها مسحة من الخيال (تثقل أو تخف) فهي تحكي عن واقعة تاريخية جنحت للخيال.
- وبين تضاعيفها تساق الأساطير بقدر كبير أو قدر يسير.

– تعتمد أسلوب السرد والوصف والحوار وصور الشخوص وترتكز أساسا على الحكاية مثلا:

- جلجامش: ملحمة سومرية
- الإلياذة والأوديسا لهوميروس يونانية.
- الإنياذة لفرجيل لاتينية
- والشاهنامة للفردوسي فارسية.

– وظهرت الملحمة منذ القديم عندما كان الإنسان يخلط بين الخيال والحقيقة، وبين التاريخ والحكاية، وفي الوقت الذي كان يهتم فيه باللاواقع أكثر من اهتمامه بالواقع، ظهرت في فترة كان الإنسان فيها يعتقد بالفطرة وكان هذا الاعتقاد يوفق بين العقل وبين ظهور الكائنات (الأرواح، الجن...) وتدخل الملائكة والشياطين في شؤون البشر.

أي أن للملحمة أصول تاريخية، وتختلط كثيرا بالخرافات والأساطير، فهي نوع من التغني بالأمجاد والبطولات الوطنية لأن الماضي بالنسبة لشعوب تلك الفترة يعد المثل الأعلى.

– والشعر الملحمي شعر إقطاعي وليس شعرا شعبيا، في موضوعاته وخصائصه الفنية، لأن أي ملحمة لا نجد فيها وصفا ولا حديثا عن الطبقات الدنيا في المجتمع، بل هو شعر يصف الأبطال والملوك ولا يذكر الشعب إلا في عد عدد القتلى، وإذا ظهرت هذه الطبقة في ملحمة من الملاحم فإنها تكون تابعة للبطل وخاضعة له أو للعقيدة.

– من العناصر الشكلية للملحمة: الوصفة الحوار، صور الشخوص، والأحداث، الزمن، وركيزتها الأساسية هي الحكاية أو السرد، ولكل عنصر وظيفته في السرد الملحمي.

– تصور الملحمة الأبطال جسميا ونفسيا، صورها بسيطة، ساذجة، جافة أحيانا، وتغلب عادة صفة من الصفات على شخصية ما وتعرف بهذه الصفة.

في الإلياذة مثلا: (هلانا تعرف بصاحبة الحزام العميق، أخيليوس يعرف بذي الأقدام السريعة، أو البطل العضلي، أجاممنون يعرف بصفة راعي الشعوب).

– تحيل الملحمة على تاريخ أمة بأكملها، أي انفتاح النص على الثقافة وعلى التراث، فمثلا هوميروس لما ألف الإلياذة لم يرو تاريخ طروادة، وإنما روى سنة واحدة وهي سنة نهاية الحرب، وهذه السنة تحيلنا على الأساطير والتاريخ وحتى على بعض الطقوس.

– ومن أقدم الشعراء هوميروس(**)، وملحمتاه الإلياذة والأوديسا، هما أقدم ملحمتين في الأدب اليوناني وأجمل ما ألف في الأدب الملحمي العالمي.

1. الإلياذة: ILIAD :

نسبة إلى اليون Ilion أحد أسماء مدينة طروادة Troy في آسيا الصغرى والتي كانت ميدانا للحرب المشهورة باسمها بين أهلها واليونانيين، يبلغ عدد أبياتها ستة عشر ألف بيت، وهي في صورتها الحالية تتكون من أربعة وعشرين كتابا (أنشودة) وقد ترجمها شعرا عن اليونانية سليمان البستاني)، ونشرت منجمة في مجلة (الرواية) في ثلاثينيات القرن العشرين.

موضوع الإلياذة: (***)

للإلياذة خلفيات تاريخية وأسطورية دقيقة، ولكن يمكن إيجاز موضوعها في أن الآلهات الثلاث: (هيرا) آلهة الزواج، (أفروديت) آلهة الحب والجمال، (أثينا) آلهة الذكاء والحكمة، تتازعن فيمن أجملهن، فقرر كبير الآلهة (جوبيتار) jupiter أن يكون (باريس) بن (بريام) ملك طروادة حكما بين الآلهات الثلاث، فحكم باريس ل(أفروديت) بتاج الجمال، فجر عليه ذلك منافستيها (هيرا) و (أثينا)، أما (أفروديت) فكافأته بأن أوقعت (هلانا) الفاتنة زوجة ملك إسبرطا في غرامه ودفعتها إلى الفرار معه إلى (طروادة)، مما أثار ثائرة ملك إسبرطا وملوك اليونان وأبطالها، فهبوا لمحو العار وعلى رأسهم (أجاممنون Agamemnon، واتجهوا إلى طروادة، فتصدى لهم جيشها وعلى رأسهم (هكتور) الأخ الأكبر لباريس، وانقسمت الألهة فيما بينهما، قسم مع اليونانيين وقسم مع الطرواديين، وقسم على الحياد.

استمرت الحرب عشر سنين كاملة، حيث حصل في السنة العاشرة خلاف حول إحدى السبايا بين (أجاممنون) و (أخيل)، ومن هذا الخلاف تبدأ أحداث الإلياذة مفترضة أن السامع أو القارئ ملم بحكاية (طروادة) وبتفصيلاتها وأبطالها.

2. الأوديسا: Odyssey :

وهي ملحمة تحمل اسم بطلها أوديسيوس Odysseys (الذي يسمى كذلك يوليس Ulysse)، وهي تبلغ أحد عشر ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين بيتا، وقد ترجمها (دريني خشبة) إلى العربية في ثلاثينيات القرن العشرين، ونشرها منجمة في مجلة (الرواية)، ثم نشرت في كتاب مستقل، وهي مقسمة مثل الإلياذة إلى أربع وعشرين أنشودة.

موضوع الأوديسا (****)

تتناول بعض ما لحق أوديسيوس (أحد أبطال اليونان في حرب طراودة)، في أثناء عودته إلى البلاد بعد انتهاء هذه الحروب، وبعض ما تعرضت له زوجته الوفية بينيلوب penelope وما تعرض له ولده الصغير تيليماك في أثناء غيابه عنهما.

ومع إن مغامرات البطل استمرت عشر سنوات فان الحدث في الملحمة يغطي الأسابيع الستة الأخيرة منها فحسب، إذ يحكي الشاعر في البداية الجزء الأخير من القصة، ثم يسوق الأحداث بطريق الاسترجاع flash - back وبذلك يمزج في براعة بين حكايتين إحداهما رحلة البطل في طريق عودته إلى وطنه ايثاكا Ithaca، ومغامراته العجيبة في الجزر التي مر بها، والأهوال والمخاطر التي تعرض لها في البر والبحر، والتي تخلص منها بمساعدة الآلهة أثينا وتوجيه كبير الآلهة جوبيتار، أما الحكاية الثانية فتشمل الأحداث التي جرت بعد عودة أوديسيوس إلى (ايثاكا) حيث كان تيلماك وزوجته ينتظران عودته بيأس بالغ، وتلتحم الحكايتان حيث يظهر أوديسيوس متنكرا فلا يتعرف عليه سوى كلبه الوفي و مربيته العجوز، ثم زوجته بعد ذلك، فيتمكن من إنقاذها وينتقم من خصومه و يستعيد مملكته.

نظرات في الإلياذة و الأوديسا:

1− تدلنا الإلياذة والأوديسا على آداب العصر الذي كتبت فيه، كما تدلنا على مبلغ ما وصل إليه من حضارة ومعارف، وتنبئنا بطائفة كبيرة من شؤونه ونظمه الاجتماعية.

− فمن قصصها يظهر لنا أن اليونان في ذلك العهد كانوا على درجة لا بأس بها في الإلمام بحوادث التاريخ والجغرافيا والفلك والطبيعة والصيدلة والطب والجراحة ....،

وأنهم بلغوا شأوا بالغا من الفنون الحربية من دفاع وهجوم وزحف وتعبئة ومبارزة وإقامة حصون وحفر خنادق وتمرين عسكري وتجسس ومخابرات........ وفي سائر أنواع الفنون الجميلة من نحت ونقش وتصوير وموسيقى وغناء............ وقد برزوا في صناعات كثيرة منها بناء السفن والنجارة والهندسة والحدادة والحفر والخراطة والصباغة والحياكة والصياغة والتطريز والغزل......

– تدلنا الملحمتان كذلك على الديانة العامة والديانات المحلية الخاصة للشعب اليوناني في ثنايا قصصها.

وقد وازنت الملحمتان بين الآلهة والبشر حتى أن هوميروس أعطى بعض الصفات البشرية اللآلهة وبالعكس فالآلهة تحب وتكره.... غير أن الديانة التي تصورها الأوديسا أرقى كثيرا من الديانة التي تنبئ عنها الإلياذة على الرغم من اتفاقهما في جوهر العقائد، إذ لا يوجد في الأوديسا أثر لتلك الخصومات العنيفة التي تصور الإلياذة أنها قائمة بين الآلهة، ولعل هذا راجع إلى أن المعتقدات اليونانية كان قد نالها شيء من التهذيب في الفترة الفاصلة بين تأليف القصيدتين، وأن المؤلف قد تأثر في كلتيهما بما كان عليه الدين اليوناني في عصر تأليفها.

– تدلنا الملحمتان كذلك على ناحية من حياة اليونان التي كانت معتمدة على نظام الرق، فكانوا يضربون الرق في صورة جماعية على الشعوب المغلوبة، وفي صورة فردية على أسرى الحرب، وخاصة النساء والأطفال (لأن الأسرى من الرجال كان مصيرهم غالبا القتل)، وعلى ضحايا القرصنة والخطف، وعلى مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة جزاء لهم على ما اقترفوه، وعلى المدينين الذين لا يوفون بديونهم.......

– تدلنا الملحمتان على الشؤون السياسية، فبلاد اليونان كانت تتألف من عدة مدن تتمتع كل مدينة باستقلال ذاتي تحت رئاسة بطل أو زعيم و تسكنها عشيرة واحدة أو عشائر منحدرة من أصل واحد، و كانت العلاقات بين هذه المدن يسودها في الغالب التوتر والنزاع، وأحيانا

كان يتاح لبعضها عهود سلم وصفاء بفضل التحالف والمعاهدات، التي تحفظ تضامنها وتكاثفها لمواجهة الأخطار الخارجية.

– تدلنا الملحمتان كذلك بعض الشؤون الاقتصادية، فالنقود المعدنية لم تكن معروفة في العهد الذي نتحدث عنه، بل كانت المعاملات اليونانية تتم على نظام المقايضة، وهي مبادلة عين بعين، ويظهر من بعض مقطوعاتها أن البقر كانت أساسا لأكثر المعاملات، إذ تقدر قيمة المتاع والرقيق والسبايا في مواضع كثيرة من الملحمة بعدد معلوم من البقر.

– يظهر أيضا من الملحمتين أنه كان لليونان صلات تجارية بكثير من بلاد العالم. وهذا في العهد الذي نتحدث عنه-، فقد امتدت تجارتهم إلى أطراف آسيا وأفريقيا، ويدل على ذلك استعمالهم للأرجوان والعاج الأفريقي بل إن فيها ما يشير إلى أن صلاتهم التجارية ورحلاتهم قد امتدت إلى أقصى بلاد الشمال، ويدل على ذلك استخدامهم لفرو الذئب الفضي الذي لا يوجد إلا في تخوم القطب الشمالي.

– تكشف لنا الملحمتان كذلك عن نظام الأسرة عند اليونان في هذه العصور، فقد كانت الأسرة عندهم على نوعين.

النوع الأول:

– الأسرة العامة أو العشيرة، وكانت تضم جميع الأفراد المنحدرين من أصل أبوي واحد(العصبة)، وكان هؤلاء يعتبرون أفراد أسرة واحدة ويحملون لقبا واحدا وتربطهم بعضهم ببعض روابط اجتماعية وقانونية وثيقة، وكان ينتظم كذلك بجانب هؤلاء أعضاء إضافيون يتألفون من رقيق العشيرة، ومواليها (ويشملون من عتق من رقيق العشيرة ومن انضم إليها عن طريق حلف أو موالاة)، وأدعياء هارو هم من تدعى العشيرة قرابتهم وتتبناهم فيصبحون أعضاء فيها ويحملون اسمها). والنوع الثاني: الأسرة الخاصة التي كان يضمها في الغالب منزل واحد، وكانت تتألف من أعضاء أصليين وهم العميد وأبناؤه وأبناء أبنائه مهما نزلوا وزوجته وزوجات أبنائه مهما نزلوا، وأعضاء مؤقتين وهن بناته وبنات أولاده (لأنهن كن

يعتبرن أعضاء في أسرة العميد قبل زواجهن، أما بعد ذلك تلتحق كل منهن بأسرة زوجها)، وأعضاء إضافيين هم رقيق الأسرة الخاصة ومواليها وأدعياءها.

– وكان النظام السائد في الأسرة هو النظام الأبوي فيلحق نسب الأولاد بآبائهم وينتمون إلى عشائرهم، أما أقارب أمهاتهم فكانوا يعتبرون أجانب عنهم، بل إن الأمهات أنفسهن كن يفقدن صلتهن بعشائرهن بمجرد زواجهن ويلتحقن بأسرة أزواجهن.

وكان للعميد سلطة واسعة على جميع أفراد أسرته، فله أن يدخل في الأسرة من يشاء، وله الحق ألا يعترف بأحد أولاده أو أن يبيع أولاده بيع الرقيق. وغيرها من السلطات والقوانين الاجتماعية التي تسير الأسرة العامة أو الخاصة، حيث نجد في الملحمتين خاصة الإلياذة، آلاف المواضيع مبعثرة في مختلف أجزائها تدل دلالة صريحة أو ضمنية على شؤون الأسرة ونظام الرق عند قدماء اليونان في هذا العهد.

2– تدور جميع حوادث (الأوديسا) حول موضوع واحد وهو رحلة أوديسيوس ولا تتناول من هذه المرحلة الطويلة التي استغرقت أعواما إلا نحو أربعين يوما.

كما تدور حوادث الإلياذة حول موضوع واحد وهو احتدام أخيليوس (أخيل) وغضبه في حرب طروادة، فهي لا تتناول من هذه الحرب التي استغرقت عشر سنين إلا نحو ستة وخمسين يوما من أواخر سنتها العاشرة.

ولكن كلتا الملحمتين تلم استطرادا بالموضوع العام الذي اقتطعت حوادثها منه، فمع أن موضوع الإلياذة هو احتدام (أخيل) وما ترتب عن هذا الاحتدام، فإن القارئ لا ينتهي منها إلا وقد تكونت لديه فكرة واضحة عن حرب طروادة ومجمل ما حدث في سنواتها العشر، وكذلك الأوديسا، تدور حوادثها حول مرحلة واحدة من سفر أوديسيوس، ولكن يفهم منها استطرادا مجمل ما حدث في المراحل الأخرى، فهما أشبه برواية تمثيلية يدور موضوعها الأساسي حول حوادث لم تستغرق إلا يوما واحدا ولكنها تؤلف بشكل يبيح للمتفرجين الوقوف على ما حدث قبل هذا اليوم من شؤون ترتبط بموضوعها.

3- تعرف الملحمة بعناصر جمالية فنية بوصفها شكلا تعبيريا فنيا، وأهم هذه العناصر. كما سبق الذكر: الوصف، السرد، الحوار، الزمان، المكان، الشخوص بصفاتهم نماذجهم: نموذج القوة، نموذج الجمال، نموذج الذكاء....)، وهذه الشخوص هي نماذج أدبية لعبت دورا أساسيا في التعبير الأدبي فيما بعد، وما تزال توظف في مجال التعبير الأدبي حتى الآن، بل أصبحت مقولات أدبية.

4- أحداث الملحمتين متسلسلة لها بداية ونهاية، وهي أحداث كبرى فيها العزة والعظمة، وفيها تمجيد للمثل العليا في المجتمع اليوناني المتمثل في الشجاعة والقوة الجسدية والحكمة والبلاغة والإخلاص والوفاء والكرم....

5- كما أن أسلوبها موضوعي لا نلمح ذاتية الشاعر، أفكارها واضحة وبسيطة ووصف الشخصيات فيها غير مباشر، حيث يتحدث الشاعر عن تأثير الظاهرة في المتلقي (مثلا: لا يصف جمال هلانا بل يصف تأثيره في الآخرين). وما يمكن الإشارة إليه أن التشبيهات الهوميرية تكون إما قصيرة جدا، أو مطولة جدا، وهذه الأخيرة تستغرق أبياتا وكأنها تجعل القارئ يشاهد لوحة من لوحات الرسم.

6- يلعب المكان دورا أساسيا في تحديد شكل الملحمة، فالإلياذة حلزونية الشكل أما الأوديسا فطولية (خطية الشكل، ذلك أن الأولى تدور في مكان واحد. وفي الزمن الواحد أما الثانية فتدور بين مكانين متباعدين.

7- للملحمتين تأثير كبير في الأدب الروماني وفي أدب عصر النهضة، والأدب الحديث والمعاصر ما يزال يحمل صفات الملحمتين، كما أن الشعر العربي والعالمي عامة يوظف الكثير من عناصرها للتعبير عن العصر.

الهوامش:

(*) **لغة: الملاحم:** جمع ملحمة على وزن مدرسة ومحكمة، والملحمة: الوقعة العظيمة من وقائع الحرب، التي يتلاحم فيها الجيشان المقتتلان.

– كانت تستعمل الملحمة في معنى الفتنة التي تفضي إلى الحرب.

– كما أن للكلمة معنى آخر، وهو التأليف والإصلاح فالكلمة مأخوذة من لحم الأمر بمعنى أحكمه وألف بين أجزائه، فإذا هو متماسك متين.

– وفي جمهرة أشعار العرب للقرشي سبع قصائد تسمى (الملحمات) بضم الميم مفردها ملحمة) وهي غير (ملحمة) المجموعة على ملاحم، وإن كانت تلك القصائد تسمى الملحمات لأنها محكمة النظم، ملحمة النسيج، كما سميت الملحمة المفتوحة الميم بمعنى الفتنة والقتال بما يكون في ذلك من تلاحم الجيوش، فالاشتقاق في كلتا الكلمتين من منبع واحد، والمعنى في كلتيهما قريب من قريب.

– وكلمة (ملحمي) تشير إلى كل ما هو بطولي ويتجاوز قدرات البشر.

(**) **هوميروس:** هناك خلاف حول حقيقة وجوده وشخصيته ومدى إسهامه في إبداع الملحمتين، فهناك من قال إنها شخصية وهمية، وإن كل ما نسب إليه هو من قصائد قديمة لعدد من قدامى الشعراء المغمورة أسماؤهم، تناقلها اليونان جيلا عن جيل، وجمعها وربط بين أجزائها جماعة من الرواة وجعلوها في صورة قصيدتين طويلتين (الإلياذة والأوديسا) ونسبوها إلى شخص من نسج خيالهم سموه (هوميروس)، وآخرون يذهبون إلى القول بوجوده وأن معظم في الإلياذة والأوديسا من تأليفه، وقد ذهب هذا المذهب جميع مؤرخي العصور القديمة والوسطى وعدد كبير من مؤرخي الأدب في العصور الحديثة، ولكل فريق أدلته في ذلك.

لكن ما يمكن قوله هو أنه مهما يكن من شيء فيما يتعلق بشخصية هوميروس ونسبة الأوديسا والإلياذة إليه، فلا خلاف بين مؤرخي الأدب في أن معظم ما اشتملت عليه هاتان القصيدتان قد ألف قبل القرن السادس ق.م (في العصر المحصور بين القرنين الحادي عشر والسادس قبل الميلاد) والعصر الذي عاش فيه هوميروس يرجع إلى القرن التاسع ق.م

كأفضل الفروض. وما اختلاف الروايات حول نشأته يرجع إلى أن مدنا كثيرة قد تنازعته ورغبت في نسبته إليها.

(***) **الخلفيات التاريخية والأسطورية للإلياذة:** كان من بين ممالك آسيا الصغرى مملكة تسمى طروادة (تمتد من القسم الجنوبي الغربي باسيا الصغرى إلى مضيق الدردنيل)، وكان يحكمها في عصر ما شيخ حكيم طيب يدعى بريام priam، وكان له أبناء كثيرون أشهرهم (هكتور) الذي كان المثل الأعلى في الشجاعة والإقدام، و(باريس) أو الإسكندر الذي أتاه الله من الجمال والوسامة ما لم يتوافر مثله لأحد في عصره.

وكان يقابل طروادة في الضفة الأوروبية بلاد اليونان التي كانت تشتمل وقتئذ غلى دويلات كثيرة على رأس كل منها ملك أو زعيم مستقل، ومن أشهرهم: أجاممنون (ملك أراجوس) وهو أعظم ملوك اليونان نفوذا في ذلك العصر، ومينيلاس (شقيق أجاممنون وزوج هلانا التي كانت أجمل بنات حواء في هذا العصر وهي بنت جوبيتار كبير الآلهة، ولم يقترن بها مينيلاس إلا بعد أن أخذ على ملوك اليونان عهدا أن يقوموا بحمايتها ويردوا عنها كل عدوان)، وأخيل ملك المرامدة وأشجع أبطال اليونان على الإطلاق في ذلك العصر)، ونستور (ملك بيلوس وأكثر زعماء اليونان حكمة وهدوءا، وأوديسيوس ملك إثاكا وأوسع زعماء اليونان حيلة وأعمقهم تأثيرا.

وحصل في هذا العصر أن اختلف ثلاثة من إناث الآلهة فيما بينهن وهن هيرا وأثينا وأفروديت، وتكتمل القصة كما سبق ذكرها من قبل في موضوع الإلياذة، لتصل إلى نشوب حرب بين اليونانيين و الطرواديين حول أسوار طروادة استعر لهيبها عشر سنين كاملة انتهت بانتصار الجيش اليوناني، و كان كذلك في عصر سابق لعصر هوميروس نفسه بعدة قرون.

هذه القصة التي استمدت منها الإلياذة موضوعها. والذي يبتدأ بحدث حصل في السنة الأخيرة من سنوات الحرب حيث حدث أن استولى أجاممنون قائد الجيوش اليونانية على بنت كاهن من كهنة الإله أبولون، فأثارت فعلته هذه حفيظة اله الشمس فقذف على معسكر

الإغريق وباء مبيدا لم يلبث رؤساء الجيش أن وقفوا على سببه عن طريق أحد عرافيهم، فطلبوا إلى قائدهم الأعلى أن يرد الفتاة إلى أبيها ويستغفر أبولون، عسى أن يرفع عنهم هذا الوباء، ولكن كبر على أجاممنون أن يتخل عن فتاته الجميلة بدون عوض، فاشترط لذلك أن ينزل له أخيل جارية حسناء كانت قد وقعت في سهمه، ولما علم أخيل بذلك، ثارت ثائرته، وكاد يبطش بأجاممنون لولا تدخل الآلهة أثينا التي صدته عن عزمه حتى تحفظ للجيش اليوناني وحدته، و انتهى الأمر بأن أذعن أخيل لرغبتهم ساخطا، و رفع أبولون الوباء عن الجيش اليوناني. وتستمر الأحداث إلى أن تصل إلى نهايتها بنهاية الحرب وانتصار اليونان.

(****) للأوديسا أيضا بعض الأحداث السابقة التي تساعد على فهمها، إذ أنه في أثناء عودة اليونان الى بلادهم بعد انتصارهم في حرب طروادة غصب عليهم آلهة كثيرون، وأخذوا يتربصون بهم الدوائر، وكان أشدهم نقمة الإله (نبتون رب البحار، فقد أرسل عليهم هوج البحار، وأثار عليهم أمواجا كالجبال، فحطم سفنهم، وأغرق منهم من أغرق، وضلل ببعضهم، وكان أوديسيوس من أشقى الأبطال وأحقهم بعذاب نبتون: فقد اعتدى يوما على أحد أبناء هذا الإله ولطمه على عينيه لطمة أفقدته البصر، فأخذ نبتون يجرعه على سطح البحر من كل صنوف العذاب، ثم قذف به في جزيرة تملكها عذراء البحار، تدعى كاليبسو، وإمعانا في النكاية به و تطويلا لمدة غربته، ألقى بحبه في قلب هذه العذراء، فاعتقلته لديها وحرصت على استبقائه. وقد انقطعت في أثناء ذلك أخباره عن أفراد أسرته، فظن معظمهم أنه قد لاقى حتفه، ولكن زوجته بنيلوب لم ينقطع أملها في عودته، وظلت وفية لعهده.

المحاضرة الثانية

الأدب الرومانـي

مقدمة:

في بداية القرن الأول قبل الميلاد (1 ق.م) انتقل مركز النشاط الأدبي من أثينا إلى روما، حيث أصبحت روما هي الوصي الشرعي على تلك الحضارة التي ازدهرت – لأول مرة في أثينا.

ضحت روما سيدة العالم الواقع حول البحر الأبيض المتوسط، حيث شهد القرن 1 ق.م سقوط مقاطعات الإغريق التي تحولت إلى مقاطعات رومانية وبدأ الرومان في بناء حضارتهم على مجد وحطام الحضارة السابقة في آن.

أهمية الأدب الروماني:

تعود أساسا إلى أنه يعد همزة وصل بين الأدب الأوربي القديم والآداب الأوروبية الحديثة، وقد مارس هذا الأدب حتى القرن 18 م تأثيرا كبيرا في تكوين الأدب الأوربي، إذ إليه يعود الفضل في حفظ أعرق وأمجد حضارة في تاريخ أوربا وهي الحضارة الرومانية.

مدى تأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني:

لقد أخضع الرومان شعوبا كثيرة لكنه لم يحدث أي تقارب بينه وبين الشعوب، ولكن ما حدث من تقارب بين اليونان والرومان كان قويا جدا، جعل الرومان يتبعون اليونان دون جهد، نتيجة العلاقات السياسية والتجارية التي وضعت الرومان في قلب الحضارة اليونانية.

يقول أحد النقاد واصفا ما قلناه " على الرغم من وقوع بلاد اليونان تحت السيطرة والنفوذ الروماني، إلا أن بلاد الإغريق قد غزت روما بفنونها وآدابها مما جعل الأدب الروماني مدينا إلى الأدب اليوناني في جميع فروع الأدب والمعرفة ".

ومع كل ما قلناه سابقا إلا أنه لا يمكن أن نقول أن أعمال وكتابات الرومان ليست مجرد صور ضوئية لمؤلفات الإغريق، وإنما استطاع بعض شعراء الرومان أمثال:

(فرجيل وأوفيد) وخطبائهم (أمثال: شيشرون) أن يؤكدوا جوانب كبيرة من ذواتهم وشخصيتهم وطبيعتهم الرومانية المتعارف عليها آنذاك.

وأبرز العوامل التي جعلت اليونان يخضعون الرومان: الفتوحات السياسية، وكثرة استخدام العبيد الإغريق في البيوت الرومانية (فلم يكونوا خدما وإنما كانوا معلمين لأبنائهم)، وقد كان ذلك أحد الأسباب الأساسية في نقل تراث الحضارة اليونانية إلى روما.

– أهم إنجاز شعري حققه الرومان، تمثل فيما قدمه أمير شعراء اللاتين فرجيل[*]، في رائعته المطولة الإلياذة.

والغاية من هذه الملحمة هي الرجوع إلى أصل الإمبراطورية الرومانية، فهي تحقق في أصلها[**] وأصل الأسرة الحاكمة بالإشادة بهما. ولأنها بمثابة ملحمة على شاكلة ملحمة هوميروس، والموضوع كان سياسيا، مما عقد الأمور أكثر وتطلب جمع الكثير من المادة الأسطورية والتاريخية والكثير من الخرافات المتعلقة بهذا الموضوع أي الحياة الفكرية والثقافية ما قبل كتابة الملحمة.

ويروى بأن فرجيل قد مات بعد إكمال الملحمة في المسودة وأوصى بأن تحرق ولا ينشر منها أي سطر ما لم يقم هو بنشره، غير أن القائد لم يلب الوصية وأمر بنشر الملحمة، ونشرت كما تركها فرجيل لم يدخل عليها أي تعديل، ويقول النقاد بأنها وصلتنا وهي تحمل بعض الجوانب غير الكاملة رغم روعتها وجمالها.

ومن الناحية الشكلية هي تقليد لملاحم هوميروس، فهي تنقسم إلى قسمين كبيرين كل قسم يحتوي ستة كتب: القسم الأول: يشبه الأوديسا بمغامراتها الحربية والبحرية، من خلال حروب إينياس في إيطاليا ليؤسس روما. القسم الثاني: يشبه الإلياذة بفتوحاتها العسكرية (حرب طروادة).

ويصور الشاعر موضوع الملحمة في الافتتاحية: " للسلاح أغني وللرجل الذي كان أول من جاء به القدر شريدا من سواحل طروادة إلى إيطاليا وشواطئ لاتيوم، يضرب.

على غير هدى بقوة من السماء في آفاق البر والبحر، بسبب غضب جونو الذي لا يعرف الصفح، وقاسي الكثير في الحرب أيضا، كي يستطيع أن يؤسس مدينة ويأتي بآلهته إلى (لاتيوم)، حيث أتى الجنس اللاتيني، ...وأسوار روما الشاهقة إلى الوجود".

التعريف بملحمة الإنياذة F : Eneide / E : Aeneid

ملحمة للشاعر اللاتيني فرجيليوس، الذي وقف آخر حياته لهذا العمل الذي وضعه في تمجيد روما وتاريخها وإمبراطورها أوغسطس(***)، وكان موفقا في اختياره لأسطورة إينياس Aeneas البطل الطروادي الذي بقي حيا بعد سقوط طروادة، وأبحر في اتجاه الغرب مع أبيه أنخيسيس : وأبنه إيلوس Iulus ، مستهدفا تأسيس طروادة جديدة في إيطاليا .

وتتألف الملحمة من اثني عشر كتابا (فصلا)، تبدأ بالرحلة إلى الغرب وتنتهي بانتصاره على اللاتين واقتحام لاتيوم Latium(****) التي رفض جوبينار Jupiter(*****) كبير آلهة الرومان أن تكون هي طروادة الجديدة لتتأسس مدينة روما بدلا منها، وتنشأ الأمة الرومانية، وبين البداية والنهاية تدور الأحداث والوقائع التي توحي بأثر الإلياذة والأوديسا، وفي ثنايا الأحداث تظهر صراعات الآلهة وانقسامهم على أنفسهم بشأن مصير البشر، كما تبرز عدد من المواقف الدرامية.

وعلى الرغم من وجود بعض مواضع التشابه مع الإلياذة أو الأوديسا وبعض المواضيع التي أعجل الموت فرجيليوس عن مراجعتها أو تكملتها، فقد جاءت الإنياذة – كما حرص فرجيليوس – عملا ملحميا رومانيا له قيمته.

وقد ترجمت ملحمة الإنياذة ترجمات مختلفة في أوربا طوال العصور الوسطى المسيحية.

الهامش:

(*) فرجيليوس: (70 - 19 ق.م) Vergilius تلقى مختلف العلوم في مدينة ميلانو في شمال إيطاليا، ثم انتقل إلى روما ودرس مختلف العلوم وخاصة الخطابة، إلا أنه فشل ولم يستطع أن يزافع إلا مرة واحدة بالمحكمة .

تأثر بالفلسفة الأبيقورية وهذه المدرسة كان لها دور كبير في تطوير النشاط الأدبي باللغة اللاتينية، إنها تدعو للسهولة وبساطة الأسلوب، مما جعل هذا الأدب يقرأ ويفهم من عدد كبير من القراء.

كتب مجموعات كبيرة من الشعر تهتم بالحياة الاجتماعية العامة منها مجموعتان بعنوان (الرعويات) و (الزراعيات)، ومن العنوان نفهم موضوع المجموعتين خاصة الزراعيات التي كانت تهدف إلى إحياء الاقتصاد الزراعي في زمانه وتدعو إلى عودة الناس إلى الزراعة. خاصة بعد الحروب التي أتلفت كل شيء، وقد تحدث عن الزراعة بأسلوب يجعل هذا العمل مقدسا. وقد كان يقود البلاد في زمنه (أوغسطس)، وكان الشاعر يهتم به، فكتب ملحمة الإلياذة التي يحقق من خلالها في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وأيضا يمجد فيها العائلة التي ينتمي إليها أوغسطس لأنه كان متهما في نسبه، وفي ملته، إذ لم يكن ينتمي إلى عائلة عريقة، فالملحمة تهدف كذلك إلى جعل هذا القائد ينتمي إلى أصول عريقة.

(**) **كيف نشأت روما:**

ذكر فرجيليوس أسطورة إينياس الطروادي واستخدمها في ملجته بشكل فني، قصد التحقق في أصل الإمبراطورية الرومانية.

وقد وضع الإيطاليون لتاريخ تأسيس روما أسطورة مشهورة نلخصها فيما يلي:

اغتصب أحد أمراء مدينة ألبا الملك من أخيه، وطرح حفيديه الطفلين، روملوس) و(ريموس) على ضفاف نهر التيبر، فالتقتهما ذئبة وأخذت ترضع الطفلين الأخوين حتى ترعرعا، ولما

كبرا أسسا مدينة حيث يا، ونصب (روملوس) أول ملك على عرشها سنة 753 ق.م، فدعيت باسمه روما.

أما المؤرخون فيقولون:

حينما نزلت قبائل اللاتين سهل (لاتنيوم)، حوالي سنة 1000 قبل الميلاد، لم يكن الروما أي وجود، فاحتاجت القبائل الضاربة على ضفاف نهر التيبر، والسائرة نحو (حياة التكتل) إلى سوق تجارية عامة، فأقيمت بعد زمن قصير شبه قرية خشبية، تحولت بمرور الزمن إلى مدينة مهمة فكانت روما التي أصبحت عاصمة لا بأس بها، لها عمرانها ولها حكوماتها وجيشها.

(***) أوغسطس Augustus (63 ق.م – 14 م) : (أوكتافيوس) .

– أول إمبراطور روماني، بل مؤسس الإمبراطورية الرومانية، وأوغسطس هو لقب القبه به مجلس الشيوخ ويعني الرئيس الأعظم، في عهده (من سنة 31 ق.م إلى 14 بعد الميلاد) ساد الأمن جميع أقطار العالم حقبة من الزمن دعيت (بالسلم الروماني، حتى إن المؤرخين اعتبروا عصره عصر روما الذهبي في الإدارة والمدنية.

ولما توفي أوكتافيوس ألتيه الرومان وعبدوه، وعاشت الإمبراطورية الرومانية بعده زهاء 400 سنة.

وقد شجع أوغسطس الأدب، هو وميسين وزيره المقرب، فنبغ في أيامه شعراء وخطباء ومؤرخون.

(****) **لاتيوم:**

البلاد الإيطالية قديما، وترجع التسمية إلى ملكها لاتينيوس، وهي سهل جنوبي نهر التيبر مكان روما اليوم.

واللاتين Latins، سكان إقليم لاتيوم القدماء، وهؤلاء قبائل تحضرت بفضل جيرانها، فبنت نحو ثلاثين بلدة منها مدينة (ألبا) الصغيرة.

جوبيتار (*****)

معبود الرومان القدماء وهو عندهم أب الآلهة وسيدهم ورب السماوات الرامي بالصاعقة.

وجدير بالذكر أن اليونانيين أثر في ديانة الرومان، فقد اقتبسوا معظم ديانتهم عن الديانة اليونانية، وكان الروماني يعتقد أن آلهته ليست إلا شقيقات لآلهة اليونان وأن لكل قوة من قوى الطبيعة إلها متسلطا عليها.

ومن أشهر تلك الآلهة:

1- جوبيتار Jupiter إله السماء وسيد الآلهة ويقابله عند اليونان زيوس Zius.

2 - مارس Mars (ابن جوبيتار وجونون يقال إنه أبو رومولوس مؤسس روما) إله الحرب

3-الزهرة(فينوس Venus) إلهة الحب والجمال ويقابلها عند اليونان أفروديت Aphrodite.

4- يونو (جونو جونون/Junon) حارسة آلهة الزواج ويقابله عند اليونان هيرا Hera

5- مينرفا Minerve آلهة الحكمة والذكاء ويقابله عند اليونان أثينا Athenes.

وغيرها من الآلهة التي بلغ عددها في روما ثلاثين ألفا، وما هي إلا رموز يتجلى من خلالها الإحساس بالطبيعة حيث تم تجسيم هذه القوى الطبيعية المختلفة في صور ألوهية مقدسة.

المحاضرة الثالثة

الأدب الفارسي : شاهنامة

الفردوسي (*) ملحمة الفرس الخالدة

مدخل:

ظهر الأدب الفارسي إلى الوجود في القرن التاسع للميلاد، و بخاصة في الجزء الشمالي الشرقي من إيران، بظهور اللغة الفارسية الحديثة(**)، وأقدم الأسماء التي يطالعنا بها هذا الأدب هي أسماء: الزوذكي الذي يلقب بـ"أبي الشعر الفارسي"، ودقيقي الذي نظم ملحمة تغني فيها بمآثر أبطال الفرس الأسطوريين، والفردوسي صاحب الشاهنامة (أو كتاب الملوك). وبعد هذه الطبقة من الشعراء ظهرت طبقة أخرى لا تقل عنها شأنا وأثرا. ومن نجوم هذه الطبقة: فريد الدين العطار، وكان شاعرا صوفيا، وجلال الدين الرومي الذي يعتبر أعظم شعراء الحب الإلاهي عند الفرس، وسعدي الشيرازي صاحب " البستان " و" كلستان " وهو من أكثر الشعراء الفرس شعبية، وحافظ شيرازي الذي يعد أعظم شعراء الفرس الغنائيين من غير منازع، وعمر الخيام الذي اشتهر برباعياته التي ترجمت إلى معظم لغات العالم، ونظامي الذي يعتبر أعظم العشراء الرومانتيكيين في الأدب الفارسي.

في العهد الحاضر ازدهر الأدب الفارسي، و برز شعراء وكتاب هم النجوم اللامعة في الأدب الفارسي الحديث أمثال: ملك الشعراء بهار ثم تقي زاده ، وبور داود ، وجمال زاده ، و صادق هدايت ، وتقترن أسماؤهم جميعا بالوطنية التي تنبع من صفاء الأنفس وهي منبع الأدب الرفيع.

وأخيرا من أكبر الشعراء الخمس: نيما يوشيج ، مهدى إخوان ثالث ، محسن بزشكيان ، سهراب سپهرى ، فروغ فرخزاد، أحمد شاملو ومن الكتاب جلال آل أحمد.

تعريف بشاهنامة الفردوسي:

الشاهنامة تعني كتاب الملوك حيث أنه في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وجه أهل خراسان وأمراؤها همتهم إلى جمع أخبار ملوك إيران وتاريخهم فاجتمعت لهم أسفار عرفت فيما بعد باسم " شاهنامه " وهي عديدة ...

وهي منظومة طويلة، تسير فيما الأحداث بطريقة روائية من خلال سرد لحياة أبطال إيران وذكر لأعمالهم البطولية وفضائلهم القومية، وتبرز أهمية النضال القومي والجهاد

الديني في طريق التحرير، ولذا ينطبق عليها اسم الملحمة، كما ينطبق على غيرها ممن تسير سيرها وتحمل خصائصها.

وقد ألف الفردوسي ملحمته هذه في 60 ألف بيت أول الأمر ... - وإن كانت هناك الآن بعض النسخ التي لا تزيد أبياتها عن نصف هذا العدد -، ووضعهما في قالب عروضي مناسب والتزم به إلى آخر المنظومة.

و" شاهنامة الفردوسي من حيث الكم والكيف أعظم أثر أدبي ونظم فارسي. بل إنها أروع الأعمال الأدبية العالمية. ولولا حرصي لقلت إنها أعظم عمل أدبي قام به إنسان، وأنتجه فنان ".

هذه مقولة " فروغي " أحد كبار الأدباء الإيرانيين المعاصرين، وهي تعكس - ولاشك- نظرة بني جلدة الفردوسي إلى هذا العمل الخالد، و تقديرهم لصاحبه الذي أحيا تاريخهم الشعبي القومي و حفظه من الضياع في غمرة الحوادث الأليمة المزلزلة التي مرت بها بلادهم.

إن عظمة الشاهنامة في رأيهم تكمن في أنها - إلى جانب أهميتها كمصدر تاريخي - تحتوي الكثير من الموضوعات والعناصر الأسطورية والحماسية. والمفروض أن أساطير البطولة تمس حياة الأمم وعزتها وتدفعها إلى التمسك بذاتها و تاريخها والدفاع عن مقوماتها ومقدساتها، والصراع مع من ينتهكون تلك المقدسات.

وتذكرها بأبطالها الغابرين الذين يتحولون مع الزمن إلى رموز مجسدة لكل ما تتشبث به الأمم الأخرى من قيم ومثل.

أو هم يؤمنون أنه لو لم تكن أشعار الفردوسي السلسلة البديعة لانحصر تاريخ إيران في عدة كتب عربية تعجز عن فهمها الغالبية العظمى من الإيرانيين، ولا يمكنها أن تؤثر في أذهانهم بنفس القدر الذي تحدثه أشعار الشاهنامة الرائعة.

ويؤمنون بأن هذه التحفة العظيمة قد منحت الوحدة والاتحاد الإيرانيين وأن من الإنصاف أنه يكون لها من التقدير والاحترام ما لملوكهم التاريخيين العظام، وأن يكون لصاحبها من الرفعة ما يجعله في عداد هؤلاء العظماء، فلولا الفردوسي ما تذكر أحد هؤلاء الأبطال، وما قاموا به من جليل الأعمال، ولما تأسس بناء وحدة إيران وقوي أساس اللغة الفارسية.

ويؤمنون أنه ما من شخص في الدنيا بأسرها استطاع أو يستطيع أن ينظم هذا القدر الهائل من الأبيات (60 ألف بيت) في غرض واحد، وتكون له نفس فصاحة الفردوسي وبلاغته.

ويبلغ بهم الإعجاب حق تجويز الأخطاء التاريخية وخلط الخرافات بالحقائق في " الشاهنامة " استنادا إلى إيمانهم بأن كل شعب يلزمه الاتفاق على شيء واحد مشترك لكي يكون بين أفراده وسائر جماعاته اتفاق واتحاد وتعاون ومشاركة وجدانية فأهم ما يجمع بين الأقوام والشعوب اشتراكها في ذكريات ماضية حتى لو كانت بعيدة عن الحقيقة وتفتقر إلى الواقعية.

والشرط الأساسي هو أن يجمع الناس على الإيمان بحقيقة تلك الذكريات وقد تمكنت الشاهمانة بروعتها من تحقيق ذلك.

وتمتاز الشاهنامة في رأي الإيرانيين خاصة، ومعظم الدارسين عامة، بأنها استطاعت أن تثبت ذكاء الشعب الإيراني وكريم عنصره، وأن تحيي اللغة الفارسية وتبقيها، أن تجبر أبناء الشعب على الصمود أمام نكبات الزمان، وأن تدفعهم إلى حب الوطن والحاكم.

وواضح فعلا أن الفردوسي كان يهدف في المقام الأول إلى توصيل تاريخ إيران الحافل بالأمجاد إلى الأعقاب الذين لا يدركون حقيقة وجودهم ويغفلون عن رفعة جدودهم، وتسير الشاهنامة متأثرة بهذا الهدف على النحو التالي:

يبدأ الفردوسي كلامه بحمد الله والثناء على رسوله الكريم وصحبه وإظهار سبب النظم. ثم يبدأ مسيرة تاريخ إيران منذ أقدم العصور. فيتحدث عن زمن الملك " كيومرث " أول ملوك البيشداديين، ثم عن " منوجهر " وبداية الحضارة البشرية والتعرف على طرز المعيشة وأسلوبها. فلقد استخرج (هوشنك) النار من الحجر وأعتبر يوم اكتشافها عيدا أسماه (جشن سده)، (وكل من كيومرت وهو شنك وجمشيد، هم طليعة الركب الأسطوري لبناة الحضارة ، و يمثل عصرهم عصر الملكية الموحدة، العصر الذي كان يحكم العالم فيه ملك واحد يخضع له الإنس والجن والحيوان).

وقد استمر فترة طويلة وسيلة من وسائل الربط بين أفراد شعب إيران. و علم جمشيد الشعب طرائق المأكل و الملبس و إعداد المنزل، وقسم المجتمع إلى طبقات وجماعات، و أطلق على اليوم الذي أنهى فيه ذلك: (عيد النيروز) (وما زال هذا العيد إلى اليوم أكبر أعياد الإيرانيين).

وفي قصة جمشيد يأتي موضوع " الضحاك "[***](غير الإيراني) و" كاوه " الحداد، و يركز الفردوسي على اتحاد الشعب الإيراني ضد الغاصب . ثم ينتقل إلى سلطنة " منوجهر " وابنه " نوذر ".

وحين يقتل الأخير على يد " افراسياب " التوراني تنتشأ حرب عدائية قومية ثأرية بين شعبي إيران وتوران، يديرها الفردوسي ببراعة لصالح الفرس نتيجة وخلقا وبطولة وشهامة، ويبرز دور البطل الذي اختاره لشاهنامته ... يبرز دور" رستم " بطل الأبطال الذي ينتهي حضوره أي معركة بنصر حاسم لبلاده.

وفي عهد " كاوس " تدخل حرب إيران وتوران مرحلة جديدة وتقع مأساة موت " سهراب ". وبذهاب " سياوش " إلى توران متألما من فعال كاوس ويقتله على يد أفراسياب.. وفعال كاوس ويقتله على يد أفراسياب.. تصل الحرب بين الشعبين إلى أوج قسوتها، وتتبدى شجاعة " رستم " و" كيو" وكودرز " و" يثرن " وسائر المحاربين الإيرانيين الشجعان. ويقع أفراسياب في الأسر، ويقتل في عهد " كيخسرو " لتنتهي حروب إيران وتوران.

ويصل افردوسي إلى قصة كشتاسب و ظهور زردشت (****)، فيورد أشعار للدقيقي تخدم الموضوع. ثم يشير إلى حكم " لهراسب " و " دارا " و حروبه الاسكندر، دون أن يشير إلى " كورش " و" قمبيز " و هما مؤسسة الإمبراطورية الهخامنشية (إن دارا الثالث الذي قتله الاسكندر هو آخر ملوك الدولة الكيانية وفقا لما جاء عند الفردوسي ... و هذا يبرز عدم ذكر لكورش مؤسس الأسرة الهخامنشية و ولده قمبير لأنهما ليسا من الفرع الفارسي) .

وحين يصل إلى عهد الأشكانيين يكتفي بعدة أبيات للحديث عنها. ولاشك أن هذا أمر طبيعي، فإن من يهتمون بالوحدة القومية لا يتحدثون بإسهاب عن هزائمهم، و لا يمجدون أعدائهم ثم يصل إلى الدولة الساسانية. فيفصل الحديث حول ملوكها و مآثرهم و ينهي الشاهنامة بموت يزدجرد الساساني في حربه مع العرب، دون أن يكون العرب في كلامه نصيب ... كما سبق أن فعل مع الأشكانيين.

موضوعات متنوعة طرقتها الشاهنامة :

ليست الشاهنامة كتابا أدبيا قصصيا تاريخيا فحسب، فقد تجاوزت كل هذه الأساسيات إلى موضوعات حياتية اجتماعية وسياسية وعسكرية ودينية ومذهبية ورومانتيكية وجغرافية وطبية.. وسوف نتحدث هنا عن أبرز ما جاء في الشاهنامة من هذه الموضوعات.

1- الصيد وآدابه:

من القصص العديدة التي وردت في الشاهنامة حول علاقة الإنسان بالحيوان في إيران القديمة نفهم أن عصر " كيومرث " هو عصر ائتلاف البشر مع الحيوان واختلاطه الأسطوري به.

فالآدمي الأول كيومرث كان يعيش برفقة الوحش والطير، ويستخدم النمر والذئب والأسد في جيشه.

ويفهم من أشعار الشاهنامة أن البشر آنذاك كانوا لا يعرفون خياطة الثياب ولبس الدروع وتقاليد الحرب.

وأن "هوشنك" بن سيامك وحفيد كيومرث هو الذي اكتشف النار، واستأنس البقر والحمير والخراف، واستخدم منها ما يصلح للاستخدام.

وقد جاء في الشاهنامة أن تهمورث بن هوشنك هو أول من درب الحيوانات المفترسة كالفهد والهر البري والصقر وأنه لدهشة الجميع قد علم الصقور الصيد.

وفي الشاهنامة يختلط التاريخ بالأسطورة فيما يتعلق باستئناس الحيوان و الصيد وفي عام 5000 ق.م تقريبا انتقل الإيرانيون من الصيد إلى الرعي و الزراعة و تركوا الجبال إلى السهول، وزرعوا وخزنوا الأطعمة، واستأنسوا البقر و الخراف كما يرد في بعض الكتب.

ويوجد في الشاهنامة إشارات إلى تعليم تقاليد الصيد وآدابه للأولاد الملوك، وإلى كيفية إعداد المجالس، واستخدام الصقور والكلاب والسهام في الصيد.

ويظهر ولع الملوك والأبطال بالصيد، وهم يخرجون في مواكب حافلة بالأبهة والترف

2- الطب في إيران القديمة:

توجد في الدين الزردشتي نصوص تتعلق بالطبيب. والزردشتية - وفق قول الفردوسي - يأمرون بمكافأة الشخص إذا أحسن.

كما أنهم يضعون أجرا للأطباء لقاء تعبهم، وقد حددوا هذا الأجر على النحو التالي: إذا شفى الطبيب رجلا من رجال الدين كان أجره الدعاء له بالخير. أما إذا مرض الحاكم ثم تحسنت صحته على يديه.. فأجره عربة تجرها عدة خيول. وإذا مرضت زوجة الحاكم وتحسنت صحتها على يدي الطبيب كان أجره جملا كبيرا أو بقرة كبيرة أو عجلا صغيرا.

وكان الأطباء البيطريون بدورهم إذا ما عالجوا بقرة كبيرة.. أعطوا بقرة صغيرة وإذا عالج أحدهم بقرة صغيرة وتحسنت.. أعطاه صاحبها عجلا أجرا له.

3- نظم الإدارة الساسانية وقوانين الدولة ورسومها:

يمكن الدراسي الشاهنامة أن يعرف عن طريقها نظم الإدارة في عهد الساسانيين (تولى الساسانيون الحكم في الفترة ما بين عامي 226 م، و652 م) ، ويمكن اختصارها فيما يلي:

كانت إدارة الدولة في يد المرازبة (المرزبان: حاكم الحدود) و كان لكل منهم السلطة في إيالته (ولايته).

وكان الملك هو الرئيس الأعلى المطاع من قبل المرازبة ... يقيم في العاصمة. إذا حارب الملك عدوا له اعتمد على الجيوش تأتيه من الإيالات في أقل من أربعين يوما. ويعين الملك القائد العام ومن هم أقل رتبة منه. وتنتهي الحرب فيسرح الجند، للملك ديوانه ومقره القصر الملكي، وفيه تكون أسماء القواد والعظماء وما يحسنونه تمهيدا لطلبهم عند الحاجة. وكان اهتمام الملك بالجيش يقتضيه أن يستعرضه قبل المعركة وبعدها.

وإلى جانب المرازبة توجد الموابدة (جمع مويد) وهم رجال الدين مستشارو الملك، ولهم حق النظر في إحصائية الجيش وميزانيته.

وغيرها من المعلومات التي يمكن استخراجها من الشاهنامة والتي تتعلق باهتمامات الملك إزاء الجيش، تنقلات الجيش، كيفية إمدادهم بالمؤن، تقسيم الغنائم ونوعيتها، طريقة التكفل بعائلات الجنود القتلى، كيفية الاستعداد للحروب وأشغال الحماس في الجنود وقت المعركة، تدريب الأبناء على الفروسية واقتصارها على أبناء الأشراف.

كما تقسم الشاهنامة طبقات المجتمع الساساني إلى طبقتين:

أ- **طبقة الأشراف:** وتسميهم الشاهنامة (كرانمايه) أو (آزاده)، و امتيازات خاصة يتوارثونها.
ب-**طبقة الدهاقين:** والدهاقين في الشاهنامة أفراد طبقة معينة من أصحاب المزارع والموسرين، وهم من صفوة القوم.. ويدخل معظم العلماء والشعراء والمؤرخين والمغنين في

عداد هذه الطبقة، وقد وضعت الدولة لها قوانين، وسادتها عادات وتقاليد ورسوم ذكرتها الشاهنامة...

4- العقائد:

يؤمن الناس في الشاهنامة بإله وأحد وقدر غالب لا راد له، و لا يختلفون في عبادتهم لهذا الإله إلا من حيث الصورة، ونراهم يلجؤون إليه وقت الشدة ويشكرونه بعد زوال الكربة ، وهم إزاء القضاء والقدر عاجزون لا تغني عنهم حيلة ولا تدبير ويحيلون عليه في كل الأمور مستسلمين .وشواهد الإيمان بالقضاء والقدر كثيرة

كما يظهر إيمان القوم بالرؤى والنبوءات، وجميعها يتحقق، وهي ليست مقصورة على المنجمين بل يشاركهم فيها الملوك والعلماء والموابذة والأبطال ولم تكن النبوءات أقل صدقا من الرؤى والأحلام.

5- تحفل الشاهنامة من خلال ذكر حروبها بفنون التعبئة والزحف ومكائد الحرب وآداب المبارزة والقتال وطرق المحاصرة ودق القلاع بالمجانيق والاستيلاء عليها، وفيها عرض لأنواع الأسلحة من سيوف ورماح وخناجر وعمد ... ومعدات للوقاية من الموت الداهم كالخوذات والدروع ... وتدور رحاها على صهوات الجياد وظهور الأفيال وتخفق بين صفوفها الأعلام، ويشرف عليها الملوك والأبطال ... ويقوم الرسل والسفراء خلالها بإبلاغ الرسائل والمفاوضات وإبرام المواثيق وعقد المعاهدات ووضع شروط الصلح والمهادنات.

6- تبرز في الشاهنامة أيضا عادات القوم وتقاليدهم في نعيم الحياة وبؤسها، من الزواج بكل تفصيلاته (مثلا: يبدو أن الإيرانيين كانوا يأنفون تزويج نسائهم من الشعوب الأخرى...، إذا أراد الأبطال الزواج فيجب أن يحصلوا على موافقة الملك، لم يكن الزواج ليتم دون موافقة المرأة كذلك، البذخ والمبالغة في تجهيز العروس في زواج الملوك والأبطال).

كما إن لميلاد الأطفال طقوسه، ولما يشب أبناء الملوك والأمراء يعلمون آداب الفروسية والصيد.

كما يظهر أن مجالس الشراب من مألوف حياة القوم ملوكا وأبطالا، وللغناء والأوتار عندهم حظ موفور ....

ويقابل المبالغة في الترف والبذخ في الأعراس والمأدب والمواكب مغالاة في مراسم الحزن والحداد إلى درجات لا تعقل، (كهدم دار القتيل أو إحراق بستانه وإتلاف سلاحه وممتلكاته...)

7- أشخاص الشاهنامة:

الشخصية في الشاهنامة هي العنصر السائد الذي يستقطبها والمحور الذي حوله تدور رحى احداثها وما فصولها ووقائها إلا مناسبات لظهور الأشخاص على مسرحها ولا نضيف شيئا إذا قلنا إنها من أولها إلى آخرها عرض للجوانب المختلفة من حياة أشخاصها وأن حياة هؤلاء الأشخاص سفر سطرت فيه أمة الفرس تاريخها وحضارتها واخلاقها ومعتقداتها ومثلها وآلامها وآمالها واحلامها وكفاحها وسائر مقومات وجودها.

وأشخاص هذه الملحمة الكبرى عالم من الإنس والجن والحيوان والكائنات الخرافية ...

والإنس منهم الملوك والأبطال والوزراء والموابذة والمنجمون والسحرة والأطباء والعلماء والحكماء والنساء.

8- قصص الحب:

مثل هذه القصص في الشاهنامة حافلة بالمتناقضات لكنها جذابة آسرة نبرز الكثير من الروابط الاجتماعية والأخلاقية بل حتى السياسية والاقتصادية في العصور التي تحدث عنها الفردوسي، ورغم أنها قائمة على الخرافات والتخيلات الشعرية إلا أن أحداثها ممكنة الوقوع في أي زمان. ومن هذه القصص ذات الدلالة في الشاهنامة:

- رودابه (أم البطل العالمي " رستم ") و زال (أبوه).

- سودابة (ابنة " دردانة " ملك " هاما وران " الوحيدة) وسياوش.- بيژن و منيزه: وهي قصة حب جذابة وردت في الشاهنامة، وظلت عدة قرون موضوع الشعر وعلامة بارزة في الأدب الفارسي، وبطلا القصة هما " بيزن" بن " كيو" و" منيزه " إحدى بنات أفراسياب.

- خسرو وشيرين: وهي أيضا من القصص التي ترددتها الألسنة ودرسها العلماء، وتغنى بها الشعراء، ودبجها النثار.

هوامش:

[*] الفردوسي: ناظم الشاهنامة : (على اختلاف الروايات فإن الشاعر يكون قد ولد في حدود 319 هـ، و توفي بين سنتي (411 ، 416 هـ) شيخا ناهز التسعين أو نيف عليها) .

في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (لعاشر الميلادي) و في قرية باز ناحية طبران طوس إحدى مدن خراسان (مشهد الحالية)، ولد أبو القاسم منصور بن حسن بن اسحق بن شرفشاه واستطاع أن يتعلم العربية والبهلوية ويحيط بأدبيها، ويقف على تاريخ أمته، وينافس أقرانه في نظم الشعر وإنشاده.

وتكثر الخلافات حول تاريخ مولده، ويقال إنه ولد في قرية " رزان باز ".

ولم يذكر الفردوسي كما لم يذكر أي كتاب شيئا عن تفاصيل العلوم التي تلقاها، ولا عن معلميه الذين جلس إليهم، وتلقى العلم على أيديهم.

قضى الشاعر وقته في طوس فأحبها، وشغف بجدولها الرقراق المتفرع من نهرها، فأقام بجواره ينشد أشعاره متمنيا أن يأتي يوم يجد فيه السد المقام على هذا النهر من يقويه بالحجارة والاجر والكلس والجير، فقد كان كثيرا ما تحطمه السيول فينقطع الماء وتضطرب الأحوال.

وقد مال الشاعر إلى تدوين سير ملوك إيران القدامى وتسجيل بطولات من عاونوهم وساهموا زمنا في رفعة إيران، فقرأ ما كتب في ذلك الشأن، واستمع إلى الروايات الشفوية، ولجأ إلى مخزون

عقله... ولم يكن تأليفه لشاهنامته بالعمل الهين، فقد عكف على نظمها خمسا وعشرين سنة أو ثلاثين سنة إلى أن فرغ من نسختها الأولى التي أهداها (في عام 390 هـ = 999 م) إلى أحمد بن محمد بن أبي بكر الخالنجاني، ثم لما التقى بمحمود سلطان الغزنويين في عاصمة مملكة غزنة (أفغانستان) (في عام 401 هـ = 1010 م) أهداه النسخة الثانية.

وفي غزنة – وبفضل الشاهنامة – طارت شهرة الفردوسي إلى كل مكان، لكنها في الوقت نفسه ولجت به مرحلة جديدة من مراحل حياته ... مرحلة القلق والخوف والألم.

كان في قريته ينعم بالدعوة الثروة والجاه، لا يحتاج نوال أحد و لو كان السلطان نفسه، فلما جاء غزنين حاملا شاهنامته ، سابقا غيره إلى نظمها ، واضعا فيها كل فنه وخبرته، مجسدا فيها آمال قومه وبني جلدته، لقي على يد محمود ما بدد فرحته ، وهدم صرح أمانيه.

لقد كتبها له كاتبه علي الديلم (الديلمي) في سبعة مجلدات و صحبه راوية أبو دلف (وهناك من يجعل الكاتب والراوية شخصا واحدا، فهو علي الديلمي الملقب بأبي دلف). وصديقه ومؤازره زمنا، ثم تلمس طريقه إلى قريته.

حيث انزوى هناك ضيق الصدر مضعضع الحواس، و قد استطاع – رغم كدره – أن يخرج إلى الوجود عملا أدبيا جليلا هو منظومته القصصية (يوسف و زوليخا) ... تلك التي تعددت آراء النقاد بشأنها بين مستحسن و مستهجن .

وحين ندم محمود على قسوته وأراد أن يعتذر له ويسترضيه، كان الفردوسي قد توفي.

تلك هي سيرة الفردوسي التي لا تروي غلة الراغبين في معرفة الكثير عنه، الطامعين في الغوص في شخصية محمود الذي يبدو في صورة من حطم قلب الشاعر العملاق وأفقده لذة النصر (ولابد ان قسوة محمود لها ما يبررها وقد تضاربت الآراء حولها وفيها ما يقبل وما يرفض) .

وإن شهرة الفردوسي قد تسببت في إحاطة سيرته بالكثير من الخرافات والأساطير، ودفعت الكثيرين إلى المبالغة والتهويل واختلاق الأحداث في كثير من الأحيان، كما إن اختلاف جنسيتي الفردوسي ومحمود وتعارض مذهبيهما وعقائدهما... قد تسبب في وجود المعلومات المتضاربة.

(**) اللغة الإيرانية:

لابد أن الهنود الأوربيين أو الهندوربيين كانوا يتكلمون في موطنهم الأول لغة مشتركة لم تصلنا منها للباحثين آثار مدونة، وكل ما يمكن قوله إن لغتهم الأولى هي اللغة التي تشعبت منها سائر اللغة الهندوربية المعروفة في زماننا هذا و من بين هذه اللغات لغة الآريين الموحدة التي كانوا يتكلمونها بعد انفصالهم عن سائل الشعوب الهندوربية وقبل انقسامهم بدورهم إلى شعبتين هندية وإيرانية، وقد تفرعت هذه اللغة بعد هجرتهم إلى الهند وإيران واستقراراهم في الأراضي الجديدة إلى ثلاث لغات هامة أولها السنسكريتية التي دون بها (الواد) كتاب الهنود المقدس فيما بعد ولغة الأيستاق والفارسية القديمة في إيران ، وكانت اللغة الأبستاقية لغة الروحانيين ورجال الدين الإيرانيين وبها دون كتابهم الأبستاق في أيام (الهخامنشيين) كما كانت الفارسية القديمة لغة النقوش والدولة في العصر (الهخامنشي)، وهذا لا يعني عدم وجود لهجات ثانوية أخرى كانت تتحدثها هذه القبائل والشعوب .

ثم تطورت الفارسية القديمة بدورها إلى ما يسمى (البهلوية) وقد عرف منها لهجتان: البهلوية الشمالية التي راجت في عهد ملوك الطوائف والبهلوية الجنوبية أو البهلوية الساسانية التي حلت تدريجيا محل اللهجة الأولى، فلما زالت دولة الساسانيين على يد العرب وتغلغلت العربية انتشر الدين الإسلامي فيش إيران، تحولت البهلوية كذلك شيئا فشيئا إلى الفارسية الحديثة أو الفارسية الإسلامية التي دون بها الأدب الفارسي الإسلامي وأصبحت لغة العلم والكتابة. وهي تكتب بالحروف العربية، وأكثر ألفاظها عربي ، كما إنها تقتبس تعابير هذه الثقافة ومصطلحاتها.

(***) الضحاك:

هو ملك أسطوري عربي يمني تبدى له الشيطان في صورة ناصح أمين زين له قتل أبيه و كان ملكا صالحا متعبدا لينفرد هو بالملك ، فلما تم له ذلك ظهر له إبليس مرة أخرى في

هيئة طاه ماهر أعد للضحاك ألوانا شهية من الطعام ، وكان الناس قبل هذا يعيشون على طعام واحد ، فشغف الضحاك بطاهيه و سأله أي أمنية يتمناها ليحققها له، فلم يطلب الطاهي أكثر من تقبيل منكبي مليكه فما فعل حتى نمت في منكبي الضحاك أفعيان لا تستأصلان حتى تعودان من جديد، وحار في أمرهما الحكماء والأطباء وإذا بإبليس يطرق باب الملك طبيبا مداويا ويشير عليه بإطعام كل من الحيتين مخ آدمي كل يوم لتهدأ ويستريح من أذاهما، فيقتل الضحاك في كل يوم رجلين . و هذه القصة من العصر الأسطوري الذي تزخر به الشاهنامة و تمثل بعضا من العادات الوحشية الهمجية .

(****) في ديانة زردشت (وهو مصلح ديني كبير ثار على تعدد الآلهة و نادي بالإله العالم بكل شيء " أهورامزاد " إلاها لجميع الطوائف و الأجناس). الكثير من التفاصيل ولكن سأذكر باختصار أهم الأصول التي تقوم عليها:

تقوم ديانة زردشت على أصول ثلاثة: أولها: عمارة العالم، فبناء البيت وتكوين الأسرة وكثرة النسل وزراعة الأرض وتربية الماشية والقضاء على الحيوانات المؤذية والهوام والعناية بصحة البدن والطهارة و عدم الصوم (لأنه في رأي زردشت يؤدي إلى ضعف الإنسان فلا يستطيع العمل) أوجب الواجبات . ثانيها: إن " أهورامزاد " الإله القادر مصدر كل خير في هذا العالم، يقابله " أهريمن " مصدر كل شر في الوجود وبينهما صراع دائم ينتهي بانتصار أهورامزاد أي تغلب قوى الخير على قوى الشر. ثالثهما: تقديس العناصر الأربعة: النار والهواء والأرض والماء، والاحتراز من كل ما يدنسها، والزردشتيون لا يحرقون موتاهم ولا يدفنونهم ولا يلقون بالجيف والأقذار في الماء تحاشي تدنيس هذه العناصر، ويضعون موتاهم في أبراج مكشوفة فوق ربوة أو بأعلى الجبال بعيدة عن العمران يسمونها " دخمه " فتنوشها الطير وتأتي عليها.

وقوام الأخلاق عند زردشت ثلاثة: الفكر الطيب، والكلم الطيب، والعمل الطيب.

المحاضرة الرابعة

الأدب الإفريقي القديم: الحمار الذهبي لـ:

لوكيوس أبوليوس

يعد واحدا من الأفارقة، أو من أبناء شمال إفريقيا الذين برزوا في ميدان الأدب اللاتيني فهو ممثل اللاتينية الإفريقية ووصف بأمير خطباء إفريقيا وأكثرهم نفوذا وشهرة في عصره حتى ولو أهمله معاصروه من الأدباء ولم يتحدثوا عنه.

ولد لوكيوس أبوليوس عام 124 أو 125 بعد الميلاد في مدينة مداور التي يطلق عليها اليوم اسم مداوروش، وقد وصفها هو نفسه بأنها مستعمرة مزدهرة وكان يفخر بالانتماء إليها فهو يسمي نفسه أبوليوس الداوري الأفلاطوني حينا، والفيلسوف الأفلاطوني حينا آخر، ولعله اتخذ هذه النسبة تمييزا له عن غيره من الحكام والمحامين الرومان، فقد كان هناك عدد منهم يزيد على عشرة يحملون اسم أبوليوس. كانت له معرفة باللغة اليونانية، وتابع دروسا في الفلسفة والهندسة والخطابة والموسيقى والشعر، ولكن كان للفلسفة مكانة خاصة في نفسه وكانت صفة الفيلسوف أفضل صفة ارتضاها لنفسه.

تنقل إلى الكثير من المدن في بلاد اليونان وفي آسيا الصغرى وفي ربوع الإمبراطورية الرومانية... حيث كسب معارف كثيرة وانتمى إلى عدة جمعيات كانت لها طقوس دينية خفية أبدى الكثير من الاهتمام بأسرارها، وتعلم حتى التمائم السحرية حبا في معرفة الحقيقة، مما جعل فلسفته مليئة بهذه الأسرار الغريبة. اشتغل بالمحاماة وبتدريس البلاغة ... في الوقت الذي كان يلقي فيه الخطب والمحاضرات ويشارك مشاركة فعالة في الحياة العامة.

فكسب ود الجماهير واحترامها، ولم يتقلد أية وظيفة رسمية، وقد يعود ذلك إلى فتور طموحه السياسي وإلى رغبته في مواصلة نشاطه العلمي والأدبي.

مرت على حياة أبوليوس الكثير من الأحداث المؤلمة الناتجة عن بعض التهم الظالمة التي ألحقت به، وقد دافع عن نفسه ببراعة كبيرة، وسخر من غباوة متهميه، وانتهت المحاكمة بتبرئته مما نسب إليه.

استقر في مدينة قرطاجة التي وصفت بأنها أثينا وروما في آن واحد، إلا أنها تقع في إفريقيا، وقد خصته أهاليها بإكليل من الذهب، تمهيدا لما سيحظى به من إجلال وإكرام.

حيث اعترف به فيها أميرا للخطابة، وكان سكان المدينة يتزاحمون الأماكن التي يلقي فيها محاضراته وخطبه، ويتخاطفون ما ينشره.

أصبح له في قرطاجة صولجان الخطابة وصار له نفوذ كبير وقد أصبح فيها الكاهن الإقليمي للمذهب القيصري، مما يخول له أن يكون عضوا في المجلس الإستشاري. وقد ألف معظم كتبه الأدبية والعلمية والفلسفية وهو في حوالي الأربعين من عمره، لأنه كان يعيش في هذا الجو الأدبي والعائلي المشجع.. ومن المرجح أن تكون وفاته قد وقعت حوالي سنة 180 بعد الميلاد. ومن آثاره:

- **الدفاع:** وهي مرافعة أو خطبة طويلة تمثل دفاعا عن نفسه لما وجهت إليه تهم كثيرة.

- **الأزاهير:** مجموعة من الخطب والملخصات النثرية المعتبرة (23 خطبة)، التي صنعت مجده، وجلبت إليه جمهورا كبيرا، فحظي بالاحترام وأقيمت له التماثيل.

3- عن إله سقراط: رسالة عن القوى التي يطلق عليها اسم الشياطين، فيحاول أن يقيم الدليل على وجودها، ويحدد مكان تواجدها، ووظيفتها، وشكلها، كما يقسمها إلى أنواع... ويدعو في النهاية إلى الاهتمام بالعقل والعناية به من خلال دراسة الفلسفة.

4- عن أفلاطون وتعاليمه:

لأن لوكيوس أبوليوس من أتباع أفلاطون، فقد حاول أن يقدم موجزا عن أفلاطون فخصص الجزء الأول عن حياته ومواهبه المتعددة، والجزء الثاني عن الفلسفة الأخلاقية من وجهة النظر الأفلاطونية. والجزء الثالث عن العقل والمنطق الصوري.

5- عن العالم: وهو خلاصة الكتاب أرسطو عن الكون.

6- أحد عشر كتابا في التحول: وهو رواية تحتوي على أحد عشر كتابا، وقد عرفت منذ أيام القديس أغو ستينوس باسم الحمار الذهبي، وقد يكون هو الذي أطلق عليها هذا الاسم.

موضوع الرواية:

من الممكن أن نلخص الحدث الرئيسي في الرواية، كما جاء في بعض كتب تاريخ الأدب الأوربي، في سطر واحد، فنقول إنها قصة إنسان يهتم بالسحر، ويحب أن يتحول إلى طير ولكنه يتحول إلى حمار، على أن مثل هذه الخلاصة تعتبر إجحافا في حق هذه الرواية الفريدة لذلك نقدم خلاصة موسعة قليلا، لاسيما أن الرواية ليست واسعة الانتشار، فنقول:

يتوجه شاب يوناني، يدعى لوكيوس، من مدينة كورنث، لأسباب عائلية إلى مدينة هيباتا، نزل ضيفا على غني بخيل يدعى ميلو، والتقى في المدينة بصديقة لأمه، حذرته من الأعمال السحرية، التي تمارسها بامفيلا، زوجة مضيفه ميلو، وعرضت عليه أن يقيم عندها تجنبا لما قد يناله بسببها من متاعب، ولكنه رفض عرضها حتى لا يجرح شعور مضيفه البخيل، وزاد هذا التحذير من فضوله ومن رغبته في التعرف على هذه القوى السحرية الغامضة، وأخذ يتقرب، البلوغ هذا الغرض من فوتيس خادمة بامفيلا، وسرعان ما عاش هو نفسه تجربة رهيبة، تتصل بالسحر، كادت توصله إلى حبل المشنقة، فعندما عاد في الليل من بيت صديقة أمه التي كانت قد دعته لتناول طعام العشاء عندها، وتوجه إلى بيت مضيفه، رأى ثلاثة لصوص أمام الباب يحاولون سرقته، فجرد سيفه وجندلهم به ثلاثتهم، وفي صبيحة اليوم التالي أمرت السلطات بإلقاء القبض على لوكيوس بتهمة الجريمة، التي ارتكبها في الليلة الماضية، فقبضت عليه الشرطة وذهبت به إلى المحكمة، وبدأت محاكمته، وبعد المرافعة والسؤال والجواب وتوجيه التهم والرد عليها، طلب منه أن يكشف عن الجثث الثلاث، التي كانت تحت غطاء يحجبها عن الأنظار، وما أن رفع الغطاء عنها، حتى أخذ الحضور يضحكون ضحكا عاليا، فقد اتضح للجميع أنها ليست جثثا ثلاثا، وإنما هي ثلاث قرب منتفخة، وظهر أن المسألة كانت مجرد دعابة، اعتادوا على تقديم مثلها مرة في العام احتفالا بعيد إله الضحك، وكان لزوجة مضيفه بطبيعة الحال يد في إعداد تلك العملية المرعبة، لكن ذلك لم يشبع فضول لوكيوس، فألح على الخادمة فوتيس أن تمكنه أخيرا من رؤية سيدتها وهي تمارس أعمالها السحرية، فوعدته بتحقيق رغبته في وقت قريب، ورفعت

بما وعدته به فعلا، فقادته إلى مكان خفي، استطاعا منه أن يلاحظا معا كيف أخذت بامفيلا مرهما من إحدى العلب ودهنت به جسمها، فتحولت إلى بومة وطارت وراحت تحلق مبتعدة عن بيتها، عندها ملك الفضول عليه نفسه، وسيطر على مشاعره، واستبد بفكره، فحرص كل الحرص على أن يعيش هو نفسه تجربة تحول من هذا النوع على الفور، فألح على الخادمة أن تستجيب لرغبته، فلم تمانع في ذلك، وحين أحضرت له المرهم المطلوب، أخطأت في تناول العلبة المناسبة، فكانت نتيجة ذلك أن تحول لوكيوس بعد أن دهن جسده به إلى حمار بدل أن يتحول إلى طائر، وراح هو نفسه يشاهد كيف أخذت تبرز في جسمه كل أعضاء الحمار وكيف أخذ يتصف بجميع صفاته الظاهرة باستثناء عقله، الذي ظل عقل إنسان بما له من إحساس وإدراك وتدبير لقد حزن لذلك، وأسقط في يد حبيبته الخادمة نفسها، غير أنها وعدته بأنها ستحضر له في الصباح التالي باقة من الورد ليأكل منها، ويستعيد بذلك شكله الإنساني، وطلبت منه أن يصبر مدة من الزمن، ثم قادته إلى الإسطبل، ليقضي فيه ليلته مع حصانة وحمار مضيفه ميلو، لكن سوء حظه أراد له أن تبدأ معاناته في تلك اللحظة وأن تطول مدة تحوله، فقد شرع زميلاه، اللذان خشيا مزاحماته لهما في علفهما، يرفسانه كلما اقترب منهما، مع أنه لم يكن ممن يأكل التين والشعير، ثم هاجم اللصوص البيت في الليلة نفسها وأخذوه مع زميله، فيما أخذوا من متاع، وقادوه تحت الضربات الكثيرة الموجعة إلى مغارتهم في أحد الجبال، وكانت تقوم على خدمتهم فيها امرأة عجوز، وفي المغامرة عاش حدثا آخر مروعا، وهو أن اللصوص أحضروا معهم فتاة رائعة الجمال، جديرة حتى بإعجاب حمار مثله على حد تعبيره، هي خريطة، كانوا قد اختطفوها يوم عرسها وحملوها إلى المغارة الإبتزاز أموال أبويها، فراحت تبكي بكاء مرا تواصل طويلا ولم تسكت إلا عندما هددتها العجوز، فراحت حينئذ تروي لها حكاية لتسليتها، هي حكاية أمور وبسيشة، أو الحب والنفس، وعندما عزم على الفرار، أمتطته، ففر بها، لكن اللصوص لحقوا بهما، وأعادوهما وكان من الممكن أن يعاقبوهما عقابا شديدا، لو لم يحضر شاب إلى مغارة اللصوص، أدعى

أن له تجارب كثيرة في ميدان اللصوصية، واقترح عليهم أن يكون رئيسهم، فوافقوا على ذلك، ولم يكن هذا الشاب في واقع الأمر غير تليبوليموس، خطيب الفتاة المختطفة، فأسكر اللصوص، ثم قيدهم وفر" بخطيبته بعد أن أركبها فوق ظهر الحمار، حاولت خريطة بعد نجاتها أن ترد للحمار جميله، فطلبت من والديها العناية به، فأمرا بتسليمه إلى رئيس الإصطبل لإرساله إلى المرعى مع الخيل، لكن ما إن وصل الحمار إلى المرعى، حتى وجد معاناة جديدة في انتظاره، فقد استخدم في إدارة الرحى، وفرض عليه حمل الحطب من الجبل إلى السهل، ولقي معاملة قاسية من الغلام الذي كان يسوقه، كان عليه ذات يوم أن يحمل الحطب من جديد، وإذا بدب يظهر أمامه ويعترض طريقه، فخاف منه وهرب، لكن الخدم لحقوا به وأعادوه إلى رئيسهم، وتبدأ مرحلة جديدة في حياة لوكيوس بعد موت الفتاة، فقد سرقه رئيس الإسطبل وفر به، وبعد مغامرات أخرى وقع في يد مجموعة من رهبان الآلهة إيزيس، فكان عليه أن يحمل تمثالها أثناء تنقلهم، وكانت له معهم تجارب مريرة أيضا، وناله منهم العذاب أكثر من مرة، ولم يسلم من سطوتهم إلا بعد أن اتهم الرهبان بسرقة قدح ذهبي وسجنوا، وأصبح له سيد آخر، فقد إشتراه طحان استخدمه في إدارة حجر الرحي، وكانت زوجته تكره الحمار، وانتقلت ملكيته بعد موت الطحان إلى بستاني، فعانى عنده الجوع والبرد، ومنه انتقلت ملكيته إلى جندي، ثم إلى أخوين يعملان حلاويين وطاهيين عند أحد الأغنياء، وهو ثيازوس الكورنثي، فبدأت مرحلة رائعة بالنسبة إليه، إذ ص ار يأكل بشكل كاف من بقايا الأطعمة التي كان الأخوان يحضرانها من بيت سيدهم، غير أن تناوله لهذه الأطعمة سرعان ما أصبح سببا في نزاع ثار بين الأخوين، إذ اتهم أحدهما الآخر بأكلها دون

علمه، ثم اكتشفا السر، وحدثا سيدهما عن ذلك، فأبدي السيد اهتماما كبيرا بذوق الحمار الغريب واشتراه منهما، وقدمه لعتيق له للعناية به، وعلمه هذا ألعابا مختلفة نالت إعجاب الخاص والعام، وأخذ يؤجره لمن يرغب في خدماته المتنوعة. من ذلك أن صاحبه

قرر تقديمه في عمل مخز على المسرح، لكنه أنقذ نفسه من تلك المهزلة بالفرار منه، وأخذ التعب منه فنام حيثما اتفق له، وحين استيقظ في منتصف الليل وجد نفسه على الشاطئ، ورأى البدر في كبد السماء، فعرف أن وقت الخلاص قد اقترب، فأغطس رأسه في البحر سبع مرات وتضرع بخشوع إلى ملكة السماء أن تحرره من هيأة الحيوان، وعندما عاوده النوم ظهرت له الإلهة إيزيس في حلمه، وأخبرته بأنها قد استجابت لدعائه، وما إن وصل الموكب العظيم لتمجيد إلهة كورنث حتى لمح لوكيوس الكاهن وهو يحمل إكليلا من الورد، فأسرع إليه وأكل من أوراقه، فاستعاد في الحين هيأته البشرية، فتحدث الكاهن عن قدرة الإلهة على إحداث هذه المعجزة التي اندهش لها الناس، وأمر لوكيوس بتكريس حياته لعبادتها، فانضم إلى الموكب المتوجه إلى البحر التدشين سفينة، ثم عاد معه إلى معبد الإلهة، وظل بعدئذ وفيا لعبادتها إلى أن تم له في النهاية الإطلاع على أسرارها، فكان يتردد في رومة على زيارة معبدها، وبعد سنة من ذلك أطلع أيضا على أسرار أوزيريس ونال الدرجة الثالثة من القدسية بعد فترة أخرى من الزمن وصار كاهنا في نظام الرهبنة.

ولعله كان من الأولى لبطل الرواية أن يسمى بالحمار الوردي، فلون الورد ألصق بالرواية من لون الذهب، فقد ذكر الورد أكثر من مرة، فوصف البطل بأنه وردي البشرة ووصفت حبيبته بأنها وردية اليد، تتزين له بها وتغمره بأكاليلها، ودماء بسيشة وردية، وفينوس تنطق بالورد، وما إلى ذلك والأكثر من ذلك أنه كان يحلم بالورد طيلة فترة تحوله، ويفز كلما رأى الورد أو ما يشبه الورد، لأنه يجسم الخلاص بالنسبة إليه، وما أحلامه إلا أحلام ص احبه في يقظته، وربما أيضا في حلمه قبل أن يجرده من نفسه ويمسخه، وهذه الأوصاف الوردية تذكرنا بالأوصاف، التي كان هومير، وهو ولا شك قدوته في أوصافه هذه وفي مغامرات بطله بشكل من الأشكال، يخلعها على أبطاله في ملحمتيه، وجعل لكل الشخوص الفاعلة فيها معنى تستشف منه طبيعته وميوله.

المحاضرة الخامسة

الأدب الإفريقي الحديث: الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي

قال عنه الزعيم الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا وهو مقيم خلف أسوار السجن (الذي قض فيه 27 عاما (هناك كاتب يدعى تشينوا أتشيبي قراءة كتبه تجعل جدران السجن تزول، هذه شهادة كبيرة حظي بها الكاتب النيجيري تشينوا أتشيني (1930–2013)، تدل دلالة واضحة على عمق التأثير الذي أحدثته رواياته خاصة، وكتاباته عامة، في الوعي الإفريقي في زمان ما بعد الاستغلال والتحرر من الكولونيالية الغربية، لقد كان واحدا من بين قلة من الكتاب ص نعوا حاضر الأدب والثقافة الإفريقيين في العصر الحديث، مبدعا خلاقا ومنظرا ومفكرا بارزا في الهوية الإفريقية، وكذلك في الآثار والجروح العميقة التي تركها الاستعمار في وعي المستعمر والمستعمر معا، فكان بذلك واحدا ممن مهدوا بعمق لنشوء ما يسمى في النظرية الأدبية نقد ما بعد الاستعمار (أو خطاب ما بعد الكولونيالية).

يعد أتشيبي، إلى جانب مواطنه النجيري الحاصل على جائزة نوبل للآداب وول يوينكا والكيني جيمس نوجي(أو نغوجي واثيونغو)، أشهر كتاب إفريقيا وأكثرهم ترجمة إلى لغات العالم، ويمكن للمرء أن يغامر بالقول إنه أهمهم تجربة وأعمقهم تأثيرا وأحدهم نظرة، وحتى أكثرهم انتشارا ومقروئية، فقد بيع من روايته الشهيرة الأشياء تتداعى" أكثر من عشرة ملايين نسخة باللغة الإنجليزية التي كتب بها الرواية، واللغات الخمسين التي ترجمت إليها، ويدل هذا الانتشار الواسع لكتاباته على ما يلامسه عمله الإبداعي، وكتاباته النقدية وتعليقاته السياسية والثقافية، في أعماق القراء الذين ينتمون إلى لغات وثقافات مختلفة.

يسعى أتشيبي في رواياته إلى قراءة تجربة الاستعمار الأوربي في إفريقيا، وكذلك إلى تصوير ماحدث بعد رحيل المستعمر وحلول طبقة من الحكام والموظفين الأفارقة الذين تسلطوا وفسدوا وجعلوا حياة الشعوب الإفريقية أكثر صعوبة مما كان عليه أيام الاستعمار الكولونيالي ولعل الأعماق الدفينة التي يصل إليها هذا الكاتب البارز هي التي جعلته على مدار ما يزيد على نصف قرن من الزمن أهم كاتب إفريقي على الإطلاق، فهو يقوم في

كتابته بتشريح آليات عمل السلطة وفساد موظفي الدولة الحديثة في إفريقيا، مقدما صورة سوداوية كتيبة عما يحدث في بلده نيجيريا، وفي بقية بلدان القارة السوداء.

من الأشياء الملهمة في حياة أتشيبي أن مهنته ككاتب لم تمنعه من أن يكون مناضلا سياسيا حرا نزيها ملتزما بتطلعات شعبه والمغلوبين والمهمشين من هذا الشعب، ولذلك عارض النظام في نيجيريا، وكان يعيش دائما في قلب الخطر، ولم يقبل محاولات استرضاء الحكم العسكري في بلده له على مدار السنوات، حتى تعرض لحادث دهس ترك نصفه الأسفل مشلولا منذ عام 1990، وهو ما اضطره إلى المغادرة إلى الولايات المتحدة متفرغا للتدريس في إحدى الجامعات الأمريكية، ليكون قريبا من المستشفيات والمراكز الطبية القادرة على تقديم العلاج له، كما قال في حوار معه.

كان أتشيبي مشاركا وفاعلا سياسيا شجاعا، كما كان ضميرا ومثالا يحتذى في الثقافة كما في السياسة، ما جعل مانديلا يقول عنه قولته الشهيرة تلك التي عنى بها أن كتابة أتشيبي ذات طاقة تحريرية عظيمة، إنها تجعل جدران السجون وحوائط الظلم والاضطهاد والعنصرية تتداعى. حقول إبداعية مختلفة:

أصدر أتشيبي خلال حياته عددا كبيرا من الكتب التي توزعت على حقول مختلفة من لإنجاز الإبداعي والثقافي، ففي الرواية كتب:" الأشياء تتداعى" (1958)، ومضى عهدا الراحة (1960). وتسهم الله" (1964)، و"ابن الشعب" (1966). وكثبان السافانا (1987). وفي القصة القصيرة: " الزواج مسألة شخصية (1981) و"البنات في الحرب وقصص أخرى" (1983)، وفي الشعر" إنتبه يا أخا الروح وقصائد أخرى"(1981).و"إفريقيا أخرى" (1998) و"قصائد مختارة (2005)، وفي النقد والدراسة:" مشكلة إفريقيا" (1984) و" آمال وعوائق (1998)، و"الوطن والمنفى"(2000)، إضافة إلى عدد من الكتب الموجهة للأطفال، وفيما يلي قراءة لأهم ثلاثة أعمال روائية له.

الأشياء تتداعى:

ينظر مؤرخه الأدب الإفريقي إلى رواية " الأشياء تتداعى" بوصفها واحدة من أهم الروايات الإفريقية التي كتبت خلال القرن العشرين، ويؤكد بعضهم أنها وضعت الأدب الإفريقي في قلب الإبداع الروائي العالمي بسبب قدرتها على طويع الشكل السردي الأوربي التقاليد السردية الشفهية التي طورتها القبائل والشعوب الإفريقية، إذ استخدم أتشيبي مخزون الحكايا في قبائل الإغبو النيجرية ليكتب نصا سرديا فريدا وأخذا يحتشد بالحكايات والأمثال والأشعار التي تحضر بلغتها الأصلية في سياق السرد المكتوب بلغة انجليزية ساحة تراوح بين سرد الحكايات والحوارات الذكية اللامعة، التي تدور بين الشخصيات وبين استخدام الأمثال والتعازيم السحرية التي تطرد الأرواح الشريرة أو تستدعي أرواح الأجداد لتحفظ أبناء القبيلة وتحميهم من أرواح القبائل الأخرى. وكذلك من خروجهم على التقاليد المرئية في القبيلة. وقد استطاع الكاتب، من خلال استخدام هذا التوليف الناجح بين الشكل الروائي الأوروبي والإرث السردي الشفهي في القبائل النيجيرية أن يجسد على صعيد المتخيل، العلامات الأولى للصدام بين الاستعمار الكولونيالي الغربي والشعوب الإفريقية في نهاية القرن التاسع عشر.

تدور حبكة " الأشياء تتداعى" حول حكاية صعود نجم أوكونكو فارس قرية أموفيا (وهي قرية نيجيرية متخيلة يعيش فيها أبناء قبيلة الإيبو) وانهياره بعد مجيء الإرساليات التبشيرية والاستعمار الأوروبي إلى أرض القبيلة. وتصف الرواية كيف استطاع أوكونكو، وهو ابن رجل فقير سكير مهمل لزوجاته وأبنائه وجبان يخاف منظر الدم، أن يمسح عار والده ويهزم أقوى شجعان القرية ليصبح من ثم واحدا من زعماء القبيلة ومضرب المثل في الشجاعة بين قرى الإيبو السبع. لكن سنوات ازدهار حياة أوكونكو كواحد من أشجع رجال القبيلة وأغناهم، لا تستمر طويلا إذ يتعرض لنكبات متوالية تدفعه إلى مصيره النهائي المحتوم بعد أن يتداعى العالم من حوله على إثر مشاركته في قتل الصبي إيكيميفونا الذي

أودعته القبيلة لديه بعد قتل والد الصبي، الذي ينتمي لإحدى القرى المجاورة وامرأة من أوسوفيا. فقد عاش الصبي في كنفه السنوات، وصار رفيقا لابنه نوويي. وأصبح مقربا إليه يتعامل معه وكأنه من صلبه. لكن ذكرى والد أوكونكو الجبان، الذي يخاف منظر الدم تدفعه إلى المشاركة في قتل الصبي الذي يحتمي به من خناجر أبناء القبيلة بعد أن تقرر العرافة أنه آن الأوان لقتله . هكذا يبدأ نجم رجل أوموفيا الشجاع بالأفول، فقد نصحه صديقه العجوز إيزيودو بأن لا يشارك في قتل الصبي لأنه صار بمنزلة الابن له. لكن عدم قبوله النصيحة يؤدي إلى كارثة ثانية عندما يقتل بالخطأ ابن صديقه الحميم إزيودو، لتأمر القبيلة بنفيه عن القرية سبع سنوات، يعود بعدها إلى القرية ليجدها قد تغيرت وحل فيها المستعمر والإرساليات التبشيرية التي اجتذبت كثيرا من أبناء القبيلة إلى الدين الجديد، وقلبت حياة القرية رأسا على عقب. وهو ما يدفع أوكونكو ورجال القبيلة إلى الانتفاض على الإدارة الاستعمارية التي تقوم بسجنهم وتجويعهم وإهانتهم وتقدير تقاليدهم لتنتهي الرواية بمصرع رسول الإدارة الاستعمارية على يد أو كونكو الذي يقوم بشنق نفسه.

تتضمن الرواية وعيا عميقا لأتشيبي بالعوامل المنتهكة المدمرة للحضارة الغربية التي تعصف بالعالم ، ويبين الثقافة الإفريقية بكل ما تملكه من بناء وتقاليد راسخة جرى إنتهاكها لحظة وصول الاستعمار الأوروبي. أي أنه حاول تجسيد ما آلت إليه نيجيريا وإفريقيا كذلك بعد **الاحتلال الأوروبي:** لقد تداعت الأشياء وفقد الأفارقة راحتهم وعالمهم المطمئن.

مضى عهد الراحة:

تسعى رواية أتشيبي الثانية " مضي عهد الراحة" إلى تصوير تداعيات الاستعمار البريطاني على المجتمع النيجيري وما أحدثه هذا الاستعمار من تحولات في تقاليد المجتمع وبنية الأخلاقية وتصوراته الذهنية. وهي ولكونها جزءا ثانيا ومكملا لرواية " الأشياء تتداعى"، تركز على حياة حفيد أوكونكو الذي ذهب إلى بريطانيا ليكمل دراسته وعاد ليعمل في إدارة

البعثات النيجيرية في العاصمة الاغوس في الفترة التي سبقت رحيل الإدارة الاستعمارية وحلول الإدارة المحلية مكانها.

بعد عودة الحفيد أوبي من دراسته للأدب الإنجليزي في لندن، ينخرط في حياة لاغوس التي تشغله عن بلدته الريفية أو موفيا، وعن أمه وأبيه الذي رأيناه في " الأشياء تتداعى" يهجر عائلته ويلتحق بالكنيسة معتنقا الديانة المسيحية التي تلقاها أوبي، وسنوات دراسته في بريطانيا والتحولات الفكرية والثقافية التي تعرض لها قد وضعته في النهاية في مواجهة مع التقاليد القبلية الصارمة التي تعجز الثقافة والدين الغربيان عن التغلب عليها؛ فوالداه المسيحيان يقفان بصرامة دون زواجه من الفتاة النيجرية التي أحبها، والتي تنتسب إلى ما يسمى طائفة الأوسو التي تعد وفق التقاليد طبقة منبوذة يمنع الاختلاط بها والزواج منها، لأن أحد أجدادها نذر نفسه لعبادة الآلة في القبيلة. هكذا يفقد أوبي حبيبته ويشعر بعد موت والدته بأن كل شيء صار بلا معنى، ليتخلى في النهاية عن مبادئه الأخلاقية ويقبل رشوة من أحد الأشخاص التي يسعى إلى ابتعاث أخته للدراسة في بريطانيا.

تبدأ الرواية بمشهد محاكمة أوبي لدى إنكشاف أمره وضياع مستقبله. ويسعى الراوي انطلاقا من مشهد المحاكمة، وفي نوع من السرد الاسترجاعي، إلى جلاء التحولات النفسية والفكرية والثقافية والصراعات الداخلية، التي مرت بها الشخصية الروائية. ونحن نعثر سواء في الحوارات التي تجري بين الشخصيات النيجيرية ومسؤولي الإدارة الاستعمارية البريطانية أو في التعليقات الجانبية لمدير أوبي البريطاني، على الرؤية الاستعلائية الاستعمارية الغريبة التي تدمغ المواطنين بالفساد وعدم القدرة على السلوك الأخلاقي الصحيح. إن التعفن الأخلاقي والكسل والبلادة وعدم الرغبة في العمل، هي جزء لا يتجزأ من البنية النفسية والأخلاقية، بل البيولوجية في الكائن الإفريقي.

هذا ما تؤمن به الإدارة الاستعمارية. فمستر ويليام غرين مدير أوبي الذي يحب إفريقيا ولكنه يؤمن بتعفنها وعدم قابليتها للإصلاح!.

ابن الشعب:

إذا كان أتشيبي يصور في روايته الأولى " الأشياء تتداعى حقبة الانتقال من زمان القبيلة إلى زمان الاستعمار، كما يصور في روايته الثانية " مضي عهد الراحة" اللحظات الأخيرة في الزمن الكولونيالي، فإنه يسعى في " ابن الشعب إلى تجسيد فساد الطبقة الحاكمة بعد رحيل المستعمر وتسلم أبناء المستعمرات مقاليد الحكم في بلادهم . ولعل تغير الموضوع، وكذلك البيئة التي تتحرك فيها أحداث الرواية، هو الذي يجعل هذا العمل مختلفا سواء من حيث طبيعة الشخصيات أو اللغة أو المنظور العام للعمل، عن الأعمال السابقة لأتشيبي الذي استمد شهرته وأهميته كروائي إفريقي من قدرته على تجسيد طبيعة الصراع بين المستعمر والمستعمر، ومن الغوص عميقا على الطاقة السلبية المدمرة للقوى الإنبريالية الزاحفة التي أدت إلى تخريب حياة الأفارقة وتدمير ثقافتهم وتقاليدهم.

تعرض " رجل من الشعب " للصراع المتوتر بين شخصيتين إفريقيتين، لا يحدد الروائي جنسيتهما في إشارة واضحة إلى رغبته في مد منظوره للفساد الذي يكتنف النخب الوطنية الحاكمة وتعميمه على الحكومات الإفريقية التي حلت مكان الاستعمار الأوروبي بعد رحيله عن القارة السوداء فنهبت خيرات بلادها واستبدت بمواطنها، ولهذا فإن الصراع المحتدم بين المعلم المثقف أوديلي وأستاذه القديم الوزير نانغا، الذي يطلق عليه الناس لقب" ابن الشعب" هو نوع من التصوير الدرامي للعلاقة المتوترة التي نشأت بين الشباب الجديد الذي تلقى تعليما أوروبيا وينادي بتحديث الأوطان الإفريقية وتطهيرها من الفساد الاستبدادي والجيل الذي نشأ في أحضان الإدارات الاستعمارية وأفسد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلدان الإفريقية التي تحررت من الاستعمار لتصبح بقرة حلوبا لنخب سياسية فاسدة تكن عداء شديدا لجيل الشباب المتعلم المتطلع إلى أوطان حديثة وديمقراطية مزدهرة. ورغم أن ظاهر الصراع بين التلميذ وأستاذه يتركز حول بؤرة التنازع على فتاة سهلة تفضل الوزير الغني على المعلم الفقير، فإن رغبة أو ديلي في الانتقام تتحول في النهاية إلى صراع

سياسي يشتد وصولا إلى حدوث انقلاب عسكري يطيح نانغا ورفاقه الفاسدين في الحكومة ممن ينتمون إلى الجيل القديم.

إن أتشيبي، البارع في بناء الأحداث والشخصيات وسرد الحكايات وتصميم الحوارات بين الشخصيات كذلك ، يحول هذه الرواية إلى معرض للوقائع الحارة المعبرة عن البيئة السياسية والاجتماعية التي تتحرك فيها الشخصيات في زمن ما بعد الاستعمار. ولهذا فإننا نجد أنفسنا إزاء شخصيات وأحداث حية نابضة، فيما تتوارى الأفكار الكبيرة والمجازات اللافتة التي ميزت " الأشياء تتداعى" وبدرجة أقل " مضي عهد الراحة". وهو ما يبين للقارئ الطاقات السردية المتفجرة، والقدرات الحوارية اللافتة وإمكانات التصوير الدرامي التي ينطوي عليها عمل أتشيبي الذي يمثل من دون أي شك – علامة فارقة في تاريخ الأدب الإفريقي وكذلك تاريخ الأدب العالمي.

المحاضرة السادسة:

نماذج من روائع الأدب الخالدة التي هيأت لنشوء أدب عصر النهضة:

عند نهاية العصور الوسطى تقريبا ظهر عملين كبيرين كانا إفرازا لهذه المرحلة ، و قد حمل هذان العملان سمات و خصائص عصر الظلام كما حملا إيحاءات و آمال العصر الجديد عصر النهضة ، أنهما (قصص الديكاميرون) للشاعر (بوكاشيو) ، والكوميديا الإلهية إلى (داننى) ، وهما عملان يفصلان بين مرحلتين متميزتين بين التخلف والتقدم، بين اللافكر والفكر، بين اللافن و الفن.

الكوميديا الإلهية لـ ---- اليجيري دانتي ***----**

تعتبر ثمرة مرحلة من مراحل التطور الفكري السياسي والفني، وتحمل السمات الثقافية لهذا العصر، وتعد همزة وصل بين العصور الوسطى و بين ثقافة عصر النهضة.

اجتمع في هذا المؤلف ايديولجية (دانتي) بجميع اتجاهاتها المتناقضة بوصفه شاعرا وفيلسوفا وعالما سياسيا وكاتبا اجتماعيا. من حيث التسمية.

الكوميديا الإلهية: الكوميديا: مأخوذة من مفاهيم العصور الوسطى التي كانت تطلق مصطلح (مأساة) على المؤلف ذي البداية المفرحة والنهاية المحزنة، و(ملهاة) تطلق على المؤلفات ذات البداية المحزنة والنهاية السعيدة.

والبداية المحزنة :هي فقدان دانتي لبياتريس.

أما النهاية المفرحة: فهي لقاؤه ببياتريس في الفردوس . والحزن و الفرح ينطلقان من الواقع و ينتهيان للخيال، وهذا راجع للرؤى التي كانت سائدة.

الإلهية: يقال أنها ليست من وضع (دانتي)، وإنما أثبتت في القرن 14م ولا يقصد بها المضمون الديني للنص، وإنما كان تعبيرا عن سموها ورفعتها، حيث كانت تطلق هذه الكلمة على شيء سامي و ذي قيم.

وليست صدفة أن تقسم هذه الكوميديا إلى تقسيم ثلاثي، فهذا يعبر عن الثالوث المسيحي: الأب والابن، الروح المقدس.

كما أن عدد أناشيد كل جزء يساوي 33 تيمنا بالسنوات التي عاشها المسيح.

- من حيث المضمون:

هي وصف لرحلة خيالية قام بها الشاعر للعالم الآخر للبحث عن (بياتريس) التي اختطفها الموت وهي في مقتبل العمر فالتقى بها في الفردوس في خضرة الخالق. ينتقل (دانتي) من الجحيم إلى الفردوس مارا بالمطهر، إذ رافقه الشاعر الروماني فارجيل) في تجواله بالجحيم، يصف له الأمكنة و يحدثه عن الأشخاص السياسيين والأدباء و كل من حفظهم التاريخ، وهم في طبقات الجحيم كل حسب مكانته وجرمه. ثم يصعد إلى الأرض (حيث المطهر) ويحدثنا (دانتي) عن عصره ومعاصريه، ويعرج بعد ذلك إلى السماوات العلا ليلتقي ببياتريس التي تجوب معه الجنة تصف له النعيم الذي ينعم به المؤمنون في الفردوس.

- من الناحية الفكرية:

تأثر (دانتي) بالرؤى أي أنواع الفنون التي كانت سائدة في القرون الوسطى والتي كانت تصور حياة الآخرة ضمن قصص أو أناشيد.... و(الكوميديا الإلهية هي خلاصة لهذه الرؤى، حيث صورت هذه الحياة وجعلتها على شكل رحلة ينتقل فيها الإنسان من درجة إلى درجة، وطريقته في التصوير خاضعة لمبادئه في الحياة. ويبدوا هذا التأثر في تصنيفه للناس الذين يعرفهم من واقعه، فيضعهم في درجات، إذ وضع أعداءه في الجحيم وأصدقاءه في الفردوس. مثلا: وضع ابن رشد في الجحيم وهذا راجع لموقف (دانتي) الفلسفي الذي يختلف عن موقف ابن رشد.

- من الناحية الاجتماعية:

تأثر (دانتي بالواقع الاجتماعي الذي كان سائدا، حيث استقى منه في الكوميديا الإلهية، إذ كانت هناك صراعات بين مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية وخاصة المتمسكة بالعقيدة الدينية و يرون بأنها يجب أن تسود، وهي المثل الأعلى الذي يجب أن يتحدى به ويطبق، وبين يحملون أفكارا تقدمية يهتمون بالواقع ويسعون إلى الانفتاح على العالم و على الناس

- من الناحية العقائدية الدينية :

إلى جانب العقيدة المسيحية التي طغت على النص، تأثر (دانتي) بالمصادر الإسلامية وخاصة - الإسراء والمعراج - لابن عربي، و- رسالة الغفران- لأبي العلاء المعري، ويمكن أن نبرهن على ذلك بسبب انتشار الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى بدءا بالاحتكاك الكبيرين الشرقي والغربي في الأندلس والحروب الصليبية، كما لعبت الترجمات الأوربية للآثار العربية الإسلامية دورا كبيرا في التأثير والتأثر، وقد كان لها دورا كبيرا أيضا في النهضة الأوربية في القرن 16م. و نشير أيضا إلى أن (دانتي) تأثرب (فرجيل) تأثرا كبيرا وقد اتخذه دليلا له خلال تجواله في العالم الأخر، لان(فرجيل) كانت له قداسة في القرون الوسطى، إذ يعتبر المبشر بالمسيحية.

ملاحظات فنية حول الكوميديا الإلهية :

1- كتبها (دانتي) بعناية كبيرة من الناحية اللغوية ،لأنه يدافع بقوة عن اللغة الايطالية، وكان يعيش صراعا بين من يدعوه لكتابتها باللغة اللاتينية لغة الكنيسة، وبين من يدعوه إلى كتابتها وفق أسس اللغة الإيطالية المحلية، فكتبها باللغة الإيطالية، ويعد من أوائل الذين قعدوا للغة الإيطالية الحالية، وقد كتب قبلها مقالات تتعلق بعلم اللغة الإيطالية فكانت (الكوميديا الإلهية تطبيقا لذلك، وبالتالي سادت اللغة الايطالية و زالت اللاتينية ابتداء من القرن 16 م و برزت اللغات القومية.

2- يبرز الرمز بشكل وظيفي واضح، أي أنه يستعمل المفردات لغير ما وضعت له، فدلالة الكلمة تجدها خارج النص، فمثلا عندما يقول : (الغابة الموحشة) فان القارئ يمكن أن يفسر ذلك بمعنى (سياسي) نظرا للحياة السياسية التي كانت سائدة آنذاك، وتفسر هذه العبارة كذلك بالفوضى والغموض الذين سادا ايطاليا والمستقبل الواضح، ويمكن أن نستنشق دلالات أخرى من خلال معرفة الظروف المحيطة بالنص و أمثلة ذلك:

- عقوبات جهنم تحمل في طبيعتها دلالة على نوع الذنوب المتركبة في الدنيا.

- وتسلسل الآلام في المطهر يرمز إلى المراحل النفسية التي يمر بها النائب في طريقه إلى الخلاص.

- والسماوات بهدوئها و سكونها و صفاتها ترمز إلى التأمل و الاهتداء إلى الصواب .

- والقصة نفسها ترمز إلى مراحل الانتقال من الخطيئة (الغابة المظلمة إلى الصفاء المطلق العرش الرباني.

- ومحاولة الصعود إلى الجبل الذي تسد منافذه الوحوش الثلاثة تدل على عقم المحاولة البشرية للخلاص بسبب العادات النفسية الكامنة في الإنسان، **فالأسد:** رمز الجشع **والعجرفة الفهد:** رمز الحسد والضغينة، **الذئب** : رمز الجشع والخسة .

- والمسيرة الطويلة من طرف العالم إلى طرفه الأخر تمثل العملية المجهدة للتخلص من الخطيئة، و(فرجيل) يمثل العقل الإنساني، و(بياتريس) تمثل الإلهام أو الكشف عن الحقيقة، أما (دانتي) فيمثل الجنس البشري.

3- بروز فكرة العدالة: حيث يركز (دانتي) على هذا المبدأ بطريقة خاصة ، و يرمز إلى نوع من الملكية العالمية ، نتيجة الدافع النفسي والروح الرومانية المحبة للسيادة و الراغبة فيها، و ذلك لان الإيطاليين يعتقدون بأنهم من يستطيع تحقيق العدالة و روح التسامح.

4- مجد (دانتي) عاطفة الحب وجعلها نتيجة التطهر من الآثار وبالتالي يكون رمز للصلاح والإيمان الصادق، ويرمز (دانتي) إلى اكتمال الحب في الذات الإلهية أي بمشاهدتها، ويلاحظ القارئ التماثل بين هذه الذات وعاطفة الحب، لأنه يرى بأن الذات الإلهية تمثل الحب الذي يحرك بالشمس و باقي الكواكب.

5- دلالة الألوان في الوصف: تدل الألوان التي وصف بها (دانتي) العالم الأخر دلالة واضحة على قيمة المكان و وظيفته حيث أنه:

- وصف الجحيم بالألوان الكتيبة الكالحة والألوان التي تعكس الشر، فسيطر عليها الأحمر والأسود اللذان يتفاعلان مع بعضهما البعض ويعطيان مختلف الانعكاسات النفسية.

- وصف المطهر بألوان اقل كآبة شاحبة خفيفة الخضرة أو ذهبية، يجد فيها القارئ البحار، الأشجار... و هذه الألوان التفاؤل و الأمل.

- وصف الفردوس بألوان لازوردية، حيث تتغير ألوانها المبهرة ، وحيث يوجد مكان الضوء النقي والأجواء الموسيقية الهادئة والحركات المنسجمة أي حالة الانتظام الكلي وحالة المثل والإكتمال.

وهذه الطريقة في الوصف تنطبق على جميع الأوصاف الأخرى المتعلقة بالأشكال البشرية، أي يصف الإنسان حيث موضعه الذي يضعه فيه ، كما يعطي للحدث اللون الذي يناسبه.

قصص الديكاميرون --- بوكاتشيو بوكاشيو** ---:**

سبق القول انه ظهر في فترة العصور الوسطى ما يسمى ب الرؤى أي التعبير عن الأشياء بالخيال والحلم، و هي نوع من القصص لا يرتبط بالواقع بل يرتبط بعالم الخيال والعالم الأخر، مما أدى إلى إنتاج أدب قصصي يحمل سمات الفن القصصي وظهر ذلك عند (بوكاشيو) في قصص (ديكاميرون) الذي كان يهتم بشعر الفرسان، وقد كتب في موضوعات مستقاة من التراث ومن الحياة المعاصرة، ومن أهم انجازاته هذه المجموعة القصصية (ديكاميرون) التي ظهرت بين (1340م – 1353م) بعد الطاعون الذي انتشر بايطاليا سنة 1348م.

موضوع قصص (ديكاميرون):

تلقي قصص (بوكاشيو) ضوءا على تدهور قيم العصور الوسطى و بدء تبرم الناس بالخمول الذي اتصفت به .

فوصف الطاعون وحالة الناس والهلع، ومقابل هذه اللوحة يصور لوحة طريفة المجموعة صغيرة من القصاصين تتألف من سبع (7) سيدات وثلاثة (3) شبان فروا وانعزلوا في بيت ريفي خارج المدينة هربا من الطاعون، ويقضي هؤلاء عشرة (10) أيام في هذا المنزل وانصرفوا للغناء والرقص وسرد الحكايات، وتجمع بينهم صفات هي أنهم ينتمون إلى أسر ميسورة الحال ومثقفون، مما جعلهم ينتقدون أجواء القرون الوسطى المتزمنة، وقد كانت نظرتهم إلى الحياة نظرة أمل وحب وإيمان، فهم يمجدون الصفات الجيدة في الإنسان. ونجد أن كل واحد من هؤلاء العشر يروي قصة وكان عدد القصص عشرة فالرواة عشرة والأبطال هم شخوص القصة. وقد قدم (بوكاشيو) لوحة واقعية لعصره، أبطاله من أبناء الشعب البسيط ومن الملوك والنبلاء والرهبان والتجار وذوي الحرف، أي أنه صور جميع طبقات الشعب، ولم يكتف الكاتب بتصوير هذه الطبقات الشعبية فقط، بل تعداها إلى تصوير الفروق الواسعة الفاصلة بين طبقة وأخرى، وصور أيضا الحالة النفسية لهؤلاء.

هناك ثلاث (3) شخصيات (أنواع الشخصية):

– نجد شخصية الكاتب ، شخصية الراوي، والشخصيات القصصية .

وهذا يؤسس لمرحلة أدبية فنية جديدة، ف (ديكاميرون) مرجعية أساسية في جماليات الأدب القصصي. كما أن أسلوب هذه المجموعة أسلوب جذاب ومعبر أسهم في تطوير اللغة الايطالية و أوصل فن القصة إلى مرحلة متطورة جدا.

الهوامش:

*** ملحمة بيوولف :**

تعد من الآداب الانجليزية الوثنية القديمة، وهي أطول قصيدة شعبية دونت في الفترة المسيحية، وهي في الأصل ملحمة اسكندنافية جلبها الغزاة الانجليز معهم من الدانمارك والنرويج في القرن السادس الميلادي (6 م)، وجرى وجرى نظمها شعرا حوالي سنة (700م).

والملحمة مجموعة من القصائد والمقطوعات الشعرية التي تشيد بالبطل (بيوولف) والفرسان الذين خاضوا الحروب والأهوال معه. وتدور القصة حول تنين مخيف يهدد ملك الدانمارك في قصره، ثم يتصدى له البطل (بيوولف) مع نفر أصحابه ويقتله، ولكن أم التنين تسعى إلى الأخذ بثأر ابنها، لذا يضطر (بيوولف إلى تعقبها في قاع إحدى البحيرات حيث يعثر على مأواها وتدور بينه وبينها معركة طاحنة تنتهي بمقتلها، ويستلم البطل بعد ذلك عرش الدانمارك وتتقدم به السن ولكنه يضطر إلى مقاتلة أفعوان ناري جديد يهدد بلده وينجح البطل في القضاء على الأفعوان ولكنه يدفع حياته ثمنا لنصره وتقام له طقوس جنائزية تليق به كبطل. وتعطينا ملحمة (بيوولف) فكر عن إيمان الناس بوجود التنين والوحوش الخرافية وفيها صورة للمجتمع الأوربي الذي كان متشبثا بالأفكار الوثنية القديمة.

*****دانتي أليجيري (1265م-1321م)** يعد من أكبر شعراء العصور الوسطى لأنه يسجل نهاية مرحلة ويدشن بذالك مرحلة جديدة، فهو يعد مرجعية لأدب النهضة، كان شغوفا بالعلم والمعرفة، وهو ينتمي إلى أسرة إقطاعية- يرتبط اسمه بـ (بياتريس بورتيناري) التي تعرف عليها وأحبها في صباه، وتشاء الصدف أن تقترن بسواه و تموت بعد زواجها بسنة، وقد اخذ (دانتي) عهدا على نفسه بتخليد اسمها بكتابات لم تكتب في امرأة من قبل.

- إذ دون هذه القصة في كتاب اسماه (الحياة الجديدة).

- تصوف بعدها (دانتي) واعتزل وانشغل بدراسة الفلسفة والثولوجيا، وقد حملت معارفه طابع العصور الوسطى الخاضعة للغيبيات والمعتقدات.

- أسهم (دانتي في الحياة السياسية مما سبب له المنفى لأنه وقف ضد البابا، وعاش وهو يحلم بالعودة إلى (فلورانس) مسقط رأسه، غير انه قضى حياته منفيا ومات بعيدا عن هذه المدينة الجميلة.

**** الكوميديا الإلهية : La Devina Commedia:**

الترجمة الوحيدة لهذه الملحمة هي التي قام بها (حسن عثمان).

- وقد صدرت الطبعة الثانية بدار المعارف عام 1955م

- ويرى النقاد أنها ترجمة جيدة، إلا أن المترجم تحرج من ذكر جزء من وصف الجحيم الإساءة (دانتي) إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- وعلي - رضي الله عنه -، ولقد برز المترجم حذفه هذا بقوله: "ولقد حذفت من هذه الأنشودة (رقم 28) أبياتا و جدتها غير جديرة بالترجمة وردت عن النبي محمد- صلى الله عليه وسلم-، وقد اخطأ (دانتي) في ذلك خطأ جسيما ، تأثر بما كان سائدا في عصره بين العامة، أو في المؤلفات عن الرسول العظيم، بحيث لم يستطع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الإسلام الحقة، وفهم حكمته الإلهية"

***** بوكاتشيو جيوفاني (Boccaccio)-(1313م-1375م)**

ولد في باريس، مؤلف قصصي ايطالي، اخذ مواد بعض مؤلفاته عن مصادر عربية فأنعش بها الأدب الإيطالي.

المحاضرة السابعة

الأدب الإنجليزي

- ويليام شكسبير 1616 - 1564 W- Shakespeare:

يمثل مدرسة أدبية وفكرية وفلسفية وتاريخية في الآداب الأوربية، فهو كاتب مسرحي وممثل ومخرج ومدير مسرح، ومن خلال مسرحياته صور الماضي والحاضر والمستقبل، وصور الإنسان في تاريخه وفي حاضره، كما صور آماله في المستقبل، وأبعد من ذلك صوره في ضوء وجوده الاجتماعي ، وصوره في ضوء حياته الذاتية العاطفية النفسية.

وهذا التصور لم يظهر إلا في القرن 19م، ومن هنا فشكسبير يمثل مدرسة منفردة تكاد تنفصل عن الآداب القومية، وإليه ينسب الأسلوب الرومانتيكي قبل ظهوره .

وقد ارتبط مسرح شكسبير بالحياة الاجتماعية رغم الطابع التاريخي، وركز على الطباع الإنسانية الفردية، أي أنه استطاع أن يعطي لشخصيات المسرح طابع التفرد، ومن هذه الميزة استطاع أن يكشف عن كافة ملامح العصر، وهذا ما يسمى في النقد الأدبي بالنمذجة (الشخصية النموذج)، أي تجسيد الفكرة والصفة أكثر من تجسيد الشخصية التاريخية (قد تكون تاريخية ولكن المعالجة تكون بالعودة إلى الواقع و الارتباط به).

وقد قسم النقاد إنتاجه الإبداعي إلى مراحل وسموا كل واحدة منها بخصائص مميزة في الآثار التي أنتجها:

المرحلة الأولى (1590 - 1600 م) : (هناك من أسماها المرحلة التاريخية):

كتب فيها جملة من القصائد الشعرية مثل: قصيدة (فينوس وأدونيس) (1593)، وتتصف هذه القصائد بالتفاؤل والثقة في المستقبل.

وألف أيضا جملة من المسرحيات من النوع الكوميدي مثل: (كوميديا الأخطاء) (1592) (ترويض الشرسة) (1594)، (حلم منتصف ليلة صيف) (1595) وغيرها من الكوميديات التي تقوم على الصدام المسرحي الذي يستدعيه تطلع الناس نحو السعادة ونضالهم ضد العوائق التي تقيمها العلاقات الأسرية الإقطاعية البالية، وعلاقات المجتمع البرجوازي الناشئ.

وفي هذه الفترة أيضا ألف شكسبير مسرحيات تاريخية عديدة مثل:(هنري السادس) (1594)، (ريشارد الثالث) (1592)، (ريشارد الثاني) (1595)، (الملك جون) و(هنري الرابع) (1597)، (هنري الخامس) (1597).

وكل هذه المسرحات تعكس رؤية شكسبير السياسية التي صاغها فنيا ، وهي رؤية تتركز على فكرة توحيد البلاد تحت راية واحدة والقضاء على التجزئة الاقطاعية والفوضى التي يثيرها الأمراء، ولأول مرة نجد مادة مسرحية جديدة لم تستفد من الأساطير بل من الواقع التاريخي ومعظمها من النضال السياسي، وعلى هذا الأساس نجد تنوعا في شخوص مسرح شكسبير، حيث يشارك فيها جميع طبقات الشعب، وتعطى الأهمية للفئات الشعبية من الطبقات الدنيا، وهذا يوحي إلى رؤية الكاتب تجاه هذه الطبقة العريضة والتي يرى فيها الخلاص و يدعوها إلى تقرير مصيرها.

المرحلة الثانية (1601 - 1608):

في هذه المرحلة تعرضت الحياة السياسية في انجلترا إلى هزات، وأصبح البلاط الملكي مأوى الرجعية، واجتمعت الأموال في هذه الفترة عند طبقة الرأسماليين وهي من أخطر مراحل التاريخ الأوربي، مما أدى إلى انتشار الفقر الشديد لدى الطبقات الشعبية مما أدى إلى ظهور عنصر المأساة في الحياة الاجتماعية اليومية، وقد انعكس كل هذا في أدب شكسبير، وكان في كتاباته يوحي دائما إلى هذه المأساة الاجتماعية والتي تصور الحياة النفسية للإنسان.

كتب في هذه الفترة: مسرحية (هملت) (1600)، (عطيل) (1604)، (الملك لير) (1606) ، (انطونيو و كليوباترا) (1607).

وهذه المسرحيات (المآسي) جميعها تكشف عن التناحرات والشرور والنقائص الاجتماعية التي تحول دون إقامة الأسلوب الصحيح في الحياة، وتترك آثارا سيئة على الفرد نفسه مما تجعله يعيش فترة من الاضطراب النفسي الذي يتسبب في أحداث لا تفسير لها اجتماعيا و توحي هذه المسرحيات بحقيقة الحياة لأنه يفضح الجوانب السلبية فيها و يدعو

إلى النضال لأجل إصلاحها و تقويمها. و هذه كلها موضوعات إنسانية هامة تتجاوز حدود الزمان و المكان .

المرحلة الثالثة (1609 - 1612):

صور فيها شكسبير الحياة كحلبة صراع بين قوى الخير والشر وتتسم أعماله في هذه الفترة بالانتصار الخلقي والواقعي لأبطاله الذين يتصفون بصفات إنسانية إيجابية، وهو لم يخرج عن موضوعاته المألوفة غير أنه هذه المرة يعطيها نهايات سعيدة ، وهو نوع من التفاؤل والرضى و الأمل للشاعر.

وأهم هذه المسرحيات: (حكاية الشتاء) (1610)، (العاصفة) (1611) ، (هنري الثامن) (1612).

ملاحظة :

هناك من قسم المراحل الأولى للكتابة عند شكسبير إلى:

- **المرحلة التاريخية (1590 - 1594م):** باعتبارها تحتوي مجموعة من المسرحيات التاريخية المبكرة، والتي تكشف بدقة عن آلية الحياة السياسية.

- **المرحلة الغنائية (1595-1600 م):** حيث تشمل على معظم قصائده الشكرية، وبعض مسرحياته الخفيفة مثل: (ريتشارد الثاني)، (حلم منتصف ليلة صيف)، (تاجر البندقية)، مع بعض من روائعه الشهيرة مثل: (روميو وجولييت)، و(يوليوس قيصر) ...

وفي هذه الفترة كتب مأساة (روميو وجوليت) (1597) وقد صور فيها الصراع الاجتماعي الخلقي الذي أدى إلى هلاك فتاة وشاب لا ذنب لهما إلا الحب الذي جمع بينهما والشقاق الموجود بين أسرتيهما، وأنهى المسرحية بانتصار العاطفة الإنسانية الصحيحة على مخلفات القرون الوسطى.

وفي الفترة نفسها كتب مسرحية مستمدة من التاريخ الروماني هي (يوليوس قيصر) (1599)، حيث صور فيها الصراع بين الجمهوريين و القيصريين.

يعد مسرح شكسبير محاولة جديدة و جدية للمسرح الأوربي ، و يمكن أن نضعه في المرتبة الثالثة بعد اليوناني و الروماني تاريخيا ، والأول فنيا، حيث صور الصراع التاريخي ، وصور الإنسان بكل أبعاده مما جعله يخلق نماذج أدبية فريدة من نوعها مما يضمن لها البقاء وتصبح موضوعات الدراسات المقارنة تأثر بها الكثير من الأدباء و الشعراء من بعده.

المحاضرة الثامنة

الأدب الاسباني:

ميغال (ميخويل / ميكاييل) سرفانتس .M.Cervantes (1547 −1616):

لا يعرف المؤرخون الكثير عن حياته، إلا أن الأكيد أنه انخرط في صفوف الجيش وشارك في معركة خاضها الأسطول الإسباني ضد الأتراك فجرح ودخل المستشفى (يقال أنه فقد يده)، و بعد خروجه عاد واشترك من جديد في حملة ضد الأتراك الذين كانوا يحتلون الشمال الإفريقي، فوقع أسيرا في قبضة رجال البحر الجزائريين الذين اقتادوه وبقية الأسرى للجزائر، وبقي في السجن مدة خمس سنوات، ولما أتمها عاد إلى مدريد، بعدها عكف على كتابة المسرحيات إلا أنه اتهم بالسرقة ودخل السجن سنة 1595م، اشترك في مسابقة الشعر وفاز بالجائزة الكبرى، عين موظفا بالحكومة وأودع بالسجن أين عكف على كتابة عمله الخالد والذي يعتبر أول رواية فنية في تاريخ الآداب العالمية (دون كيشوت Don Quichotte)، وقد أصدر الجزء الأول سنة 1605، أما الجزء الثاني فقد أخرجه سنة 1615، وقد طبقت شهرته الآفاق، ولكنه لم يفد من ذلك شيئا ومات في فقر شديد في السنة نفسها التي شهدت موت شكسبير.

وخلاصة حياة الشهير (دون كيشوت دولامانشا) ومنجزاته، أن السيد (كويخادو) أو (كويخانا) كان يعيش في قرية من قرى مقاطعة (لامانشا) في شمال إسبانيا وحيدا إلا من ابنة أخت له وخادمة للمنزل وحصان. وكان في الخمسين من عمره. حيث قرر بتأثير من مطالعة كل ما وصلت إليه يده من روايات الفروسية (أدب الفرسان غير واقعي ازدهر زمن الحروب الصليبية) أن يحيي تقليد الفروسية .

نجح في إقناع جار له فلاح فقير بالالتحاق به مقابل وعد بتنصيبه حاكما على إحدى الجزر، هو وتابعه (سانكو بانسا)، وقد انتقى (كويخادو) لنفسه اسم (دونكشوت دولامانشا)، وأسمى دابته اسم حصان أصيل مشهور (روسينانت)، وانتقى لنفسه محبوبة وهمية أسماها (دلسينا دل تو بوزو) وكان قد أخذ عدة حربية قديمة متأكلة، وبذلك يكون قد اتخذ جميع المظاهر الشكلية للفروسية، وقصد وتابعه أرض الله الواسعة، للقيام بالمغامرات الناجمة عن

تصور وجود الأعداء في كل مظهر من مظاهر الحياة و الطبيعة وليثبت بطولته ، فينقض على طواحين الهواء وعلى قطيع الغنم، متوهما بأنها جيشا معاديا له، وتستمر مغامراته الخيالية حيث يصدم في كل مرة بالهزيمة بأن يقع ضحية إصابات بليغة و آلام مبرحة.

يتهم بالجنون وباللاوعي، فيقتاد إلى منزله وتحرق جميع كتبه، فيصاب بالجنون فعلا، ثم يواصل مغامراته على فرسه الهرم مصحوبا بحماره (سونشو)، وفي الأخير ينهزم و يقرر إيقاف المغامرات، ويموت بعد أن يكتشف بطلان كبريائه الوهمي تاركا وراءه حقيقة وجود خال من البطولة والشعر .

نستطيع استخراج عدة دلالات من هذه القصة:

1- السخرية من أسلوب الفرسان أي من أدب الفروسية وما فيه من تصنع وزيف، والسخرية أيضا من القوة أي أنه لا يمكن تحقيق كل شيء بواسطة القوة.

2- أبرز مسألة هامة هي الفردانية، فالإنسان المفرد لا يستطيع أن يغير العالم، و(دون كيشوت) أراد أن يغير العالم، بمفرده.

3- كل أحداث القصة توحي إلى أن الواقع لا يمكن أن يتغير بالأحلام والخيال و إنما يستدعي الفعل الجاد الجماعي المخطط له.

4- جميع ملابسات القصة توحي بأن الكاتب كتبها بعد مغامرات بحرية مع الأسطول الإسباني ، و هي بشكل من الأشكال موقف من هذه الحرب و تساؤل لماذا هذه الحرب ؟ ولماذا هذا السجن؟.

5- يمكن القول أن (دون كيشوت) رمز للأسطول الذي هاجم شمال إفريقيا، و الذي انهزم مرارا ، و النقد لم يكن صراحة، فدون كيشوت هو فارس عجوز يشعر بإهانة جراء ما يحدث في المجتمع من ظلم و استبداد ، فينهض للنضال في سبيل نشر العدالة و الدفاع عن الحق.

6- كتبت الرواية – كما سبق القول- بأسلوب يسخر فيه الكاتب من نظام الفرسان وأدبهم، ويوحي إلى أن الحياة تقدم دوما الجديد، وقد قادت هذه السخرية التي ظهرت في (الجزء الأول) من الرواية إلى التصدي ل (سرفانتس)، وراح أحد ممثلي آداب الفرسان يقف أمام الشعبية الهائلة التي حققها (الجزء الأول) واستغل طول غياب (الجزء الثاني) فنشر جزءا مزيفا حاول فيه إهانة (سرفانتس) والحط من قيمته غير أنه لم ينجح ، ونشر الكاتب الجزء الثاني سنة 1615 م.

7- صورت هذه الرواية بصدق حياة شعب بكامله- وهي الحديث- كما صورت أهم العوامل الاجتماعية التي يمكن أن تحرك العصر، وهي تجمع بين أسلوبين، بين لغة كاتب واقعي يصف الحياة من حوله ، وبين لغة فنان ساخر هازيء من كل شيء.

8- تعتبر هذه القصة بداية الأدب الإسباني الجديد، وقد سار جميع الأدباء الإسبان على التقاليد التي وضعها سرفانتس، كما اعتمدها النقاد والأدباء فنيا في كتابة القصة الواقعية والفنية عامة.

المحاضرة التاسعة

الأدب الفرنسي: موليير (1622-1673)

مدخل

يعد القرن 17م العصر الذهبي للأدب الفرنسي، وفيه بلغ الأدب المسرحي ذروته بفضل: كورناي، وراسين، وموليير... وارتقى الشعر الغنائي والهجاء بفضل: جان دي لافنتين، وبوالو، وبلغ النثر الفني الكمال في مؤلفات باسكال، ومدام دي سيفيني وبوسويه ومدام دي لافاييت، ولاروش فوكو، ولابروبير ويمتاز هؤلاء الأدباء رغم اختلافهم ، بالوضوح والعقل ، كما يمتازون بالذكاء والإهتمام بالسلوك الإنساني ..

أما أدب القرن 18، فيعد خياليا في مجموعه، ويمثل عصر إضمحلال، لذا لم يَخْلد لنا من أدبائه إلا قلة، آثارهم رائجة أمثال: بومارشية، وشنتيه. والكتاب الذين تعرضوا لموضوعات سياسية فلسفية، مثل: موتسكيو، وروسو، وفولتير، وديدرو، ومدام دي ستايل.

وعندما اندلعت الثورة الفرنسية انفجرت معها ينابيع الأدب الرومانسي، ومن زعمائه: شاتوبريان، و لامارتين ، وفيكتور هيغو، وألفريد دي موسيه......: أما كتاب القصة في القرن 19م ففي مقدمتهم : مريميه ، ستاندال ، جورج صاند ، بالزاك ، فلوبير ....

ويتميز القرن 19م بتعدد مدارسة الأدبية مثل: جماعة البرناسيين بزعامة لوكونت دوليل، وكوبيه وبرودونكو الرمزيين الذين التقوا حول مالارميه. أما الشعراء العظماء فلم ينتموا إلى فئة بعينها أو مدرسة بالذات مثل: فرلين، ورامبوء، وفاليري.... ونجد من كتاب القصة والمسرحية في أواخر القرن 19: سارتر، وكوتكو، وكاي، وأنوي، ومترلنك، وروستان.

وتعتبر القصة الطويلة أهم الفنون الأدبية في القرن 20م، وقد برع في كتابتها: بوجيه، ولويتي، وباريز، وزولان، وكولت، وجيد، وجيرونو، وبروست، ومورياك، ومارلرو، وأراجون .. ومن المسرحيين الذين يمثلون العصر الكلاسيكي: موليير.

موليير (1673-1622): واسمه الحقيقي جان باتيست بوكلا، هو كاتب مسرحي ومخرج، درس الحقوق إلا أنه رفض المحاماة والتجارة، كان يميل كثيرا إلى الحرية الأدبية وإلى المسرح و إلى الدراسات الفلسفية، أس رفقة أسرة تحترف التمثيل المسرح الرائع الذي

أغلق و لم يستطع أن يصمد أمام ظروف الحياة تراكمت عليه الديون و المطاردات مما جعله يتجول في مختلف أنحاء فرنسا صحبة الممثلين ، ثم التحق بفرقة مسرحية متجولة ، و فيها تعرف على الحياة بشتى ألوانها و أشكالها . و تعد هذه المرحلة من حياته مرحلة بحث ودراسة.

بعدها عاد إلى باريس أصبح رئيسا لفرقة المسرح، اهتم بالأدب الكوميدي الشعبي، وظهر ذالك في مسرحيتي: الطبيب العاشق ، طبيب رغم أنفه، (أو رغما عنه). وقد اشتهرت فرقته و اكتسبت قوة اجتماعية و فكرية نشطت في مدينتي ليون وباريس. واستطاع أن يمثّل في البلاط الملكي، حيث وضع الملك (لويس 14) إحدى قاعات القصر تحت تصرف الفرقة.

غير أن رغبته في نشر أفكاره الفنية جعله يتعرض إلى عواصف من الجدل والنقاش ينتهي أحيانا إلى مخاصمته أو محاكمته. كالهجوم عليه عند عرض مسرحيته *المتحذلقات* 1656، وازداد الضغط عليه عند عرض مسرحية* مدرسة النساء* 1662، حيث اعتبرها المجتمع الراقي (النقاد والحكام) هجوما سافرا على تقاليد وأعراف الكلاسيكية وشنت ضده حملات عنيفة قصد تحطيمه .

هاجمته السلطة و رجال القضاء ورجال الدين و الصحافيين ، واتهم بشتى التهم ، ووصل الأمر إلى الإعتداء الجسدي عليه. وقيل بأن الملك كان يتعاطف معه ، كما كان يقف أحيانا إلى جانب أعدائه، ومنعه من عرض مسرحية (المنافق)، ومسرحية (دون جوان) 1665.

وتعد الفترة بين 1664 و1667 من أخصب فترات إنتاجه المسرحي، كتب فيها أقوى مسرحياته وأعمقها، حيث كشف فيها عن العيوب الاجتماعية وانتقدها بأسلوب ساخر و هي (دون جوان)، و(المنافق)، و(كاره الشر). وقد صاحب صدورها رد فعل عنيف من قبل الطبقة الكلاسيكية مما عقد حياته و تسبب في خسارة كبيرة لفرقته المسرحية التي كانت تمنع

من عرض المسرحيات، وكان مسرحها يقفل لمدة تطول أو أما اختلف موليير مع راسين الذي كان مقربا إلى القصر، ساءت صحته ، وأصيب بمرض مما جعله يتنازل عن أفكاره وتخلى عن النهج الذي سلكه في البداية، وقد كتب في هذه الفترة بعض المسرحيات مثل: البخيل، النساء العالمات، مريض الوهم. يروى أنه سقط على خشبة المسرح أثناء عرض مسرحيته (مريض الوهم)، بعدما أحست بضعف شديد حيث توفي بعد ساعات، وقد رفض رجال الكنيسة الصلاة عليه ودفنه وهذا نتيجة لموقفه منهم، فقد صورهم في مسرحية (المنافق) جماعة من المنافقين وسلاحا في أيدي الطبقة المتسلطة.

أسس موليير تقاربا بين المأساة والملهاة، فقد قلل نوعا ما من أجواء الحزن والعنف في المأساة ،و رفع أسلوب الكوميديا.

وقد اقتبس الكثير من المخرجين و كتاب السيناريو في العالم وفي المسرح العربي كذالك العديد من مسرحياته.

البخيل

تعتبر ملهاة البخيل (1668) نموذجا لإنتاج موليير ا، وهي توضح عبقريته الكوميدية كما تكشف عن نواحي الضعف عنده، وهذه التمثيلية معروفة تماما في الوسط المسرحي العربي فمنذ مطلع عصر النهضة جرت محاولات عديدة لإقتباسها وصدرت لها ترجمات مختلفة كما مثلت على المسرح العربي مرات ومرات. وتدور حول البورجوازي الشحيح (أرباغون) الذي تساور مخيلته مشروعات ثلاثة متعلقة به وبولديه، فهو، أولا، منهمك بوضع الخطط لتزويج ابنته (ايليز) من صديقه الكهل (أنسلم)

الذي يمتاز بميزتين أساسيتين: هما سعة الثراء و الاستعداد لقبول الفتاة دون مهر، وهو ثانيا، يود لو انه يزوج ابنه (كليانت) من أرملة غنية وهو الثالث، اصطفى لنفسه الفتاة (ماريان) التي تنتسب إلى أسرة عريقة خذلتها الأيام في ضنك وعسر. ولكن الرياح تجري بغير ما تشتهي السفن فايلز واقعة في غرام الشاب (فالير) الذي تظاهر أنه خادم والتحق

بمنزل البخيل تقربا إلى فتاته، وكليانت ينافس أباه على حب ماريان وقد تعاهد و إياها على الزواج. وهو مدمن على القمار و تضطره حاجته و إمساك والده إلى الإستدانة، فيوسط أحد معارفه للتوصل إلى أحد المرابين و حين يلتقي الطرفان يكتشف أن المرابي هو والده، و تنشأ بين الأب و ابنه مشادة عنيفة و يغلظ كل منهما القول للآخر.

وتزيد هذه دورة التجربة البخيل حرصا على ماله و تدفعه إلى موارة صندوق نقوده في حديقة داره خوفا من كيد ولديه. ويسيطر على البخيل هوسه بالمال، و حتى تعلقه بماريان الفتية لا يؤدي إلى زحزحة موقفه ولو قيد شعرة. وعلى أي حال يضطر أخيرا إلى إقامة وليمة لماريان و أمها، ويحاول أن يضبط تكاليف بعد ذلك الوليمة في أدنى حدود ممكنة، ثم يكتشف بعد ذلك العلاقة التي تربط ابنه كليانت بماريان و يجن جنونه و يحاول أن يزجر ابنه و لكن الموقف يتطور إلى صراع حاد مكشوف و يقرر الأب طرد الابن و حرمانه من الميراث. وفي هذه الأثناء يدبر (لافليش) خادم كليانت الوفي سرقة صندوق أرباغون الخاص الذي تختبئ فيه ثروة البخيل النقدية ، ويجن جنون أرباغون عند اكتشافه الأمر وتنقلب حياته غما و أسى ويأخذ بالهذيان ويلقي التهم يمينا و شمالا بل– كما تشير المسرحية – يتجه إلى جمهور المشاهدين بأصابع الإتهام. وتكون سرقة الصندوق فاتحة النهاية السعيدة للأحداث التي امتزجت بها عطر الملهاة بالمأساة، ذلك أن البخيل يضطر إلى الخضوع لمطالب ابنه كليانت مقابل استعادة صندوق النقود مر، ويساعد على ذلك قدوم النبيل أسلم لإتمام صفقة زواجه من ايليز ويسمح وجوده بكشف سر غريب هو أن ماريان وفالير أخوان فقدا والدهما وافترق كل منهما عن الأخر على إثر غرق مركب بحري كانت تستقله الأسرة، ويتعرف عليهما أتسلم ويثبت له أنهما ابناه، ويبدي موافقته على زواج الأحبة (كليانت– ماريان وفالير– ايليز)، وينتزع الموافقة على هذه النهاية السعيدة من أرباغون الذي يتوصل بعد المساومة إلى تحقيق الهدفين الأساسين العزيزين على قلبه:

الأول: استعادة الصندوق.

الثاني : تحميل أنسام جميع النفقات المترتبة على زواج الأحبة الأربعة .

وهكذا ينتصر الحب والشباب والخير في النهاية، ويحافظ البخيل على ماله ولكنه يخسر الحياة.

تعليق:

– جريا على العادة المألوفة في عصره استقى موليير مادة تمثيليته من قصة سابقة معروفة، ولكنه خلق منها شيئا جديدا خاصا به كما كان يفعل شكسبير. وتتمتع تمثيلية (البخيل) بالمزايا الأساسية لمسرح موليير مثلما تعني من نواحي الضعف المعروفة في مسرحه. وتبدو الحبكة ضعيفة ومصطنعة وقائمة على مسلسل من المفاجآت التي لا تستند إلى أي تمهيد في أحداث التمثيلية، كيف يحدث أن يحب الأب وابنه الفتاة نفسها وليس هناك ما يربطها بأسرة ارباغون. وكيف يذهب (كليانت) الإقتراض المال من شخص لا يعرفه ثم يكتشف لحظة البدء بالصفقة أن هذا الشخص هو أبوه، بل كيف يقدم الأب– وهو مثال الشح والحرص– على اقتراض شخص لا يعرف عن أحواله شيئا! وكل ذلك يهون على أي حال إزاء المصادفة الكبرى التي أريد لها أن تحل عقدة الرواية وتتجه بها نحو النهاية السعيدة، وتلك هي اكتشاف القرابة في لحظة إلهام صاعقة بين الأب أتسلم وولديه فالير و ماريان.

– وبالإضافة إلى تهاتف الحبكة ولا معقوليتها هناك مواقف أخرى كثيرة تبدو غاية في الغرابة والاصطناع، وأحيانا يصل بها التكلف إلى درجة السخف والابتذال، كموقف أرباغون الذي يستشيط غضبا إذ يكتشف سرقة صندوقه، ويقوده هذيانه إلى التوجه إلى نظارة المسرح صارخا بهم، ملقيام على عاتقهم مسؤولية السرقة، وأخيرا يصل به الأمر إلى أن يمسك بيده متوهما أنها يد اللص الذي أقدم على السرقة، و بوجه عام لم يستطع موليير مقاومة الميل إلى التهريج و التضخيم المصطنع، ويبدو للقارئ– ربما أكثر مما

يبدو للمشاهد على المسرح – أنه كان مصمما على استثارة الضحك في صفوف المشاهدين بأي ثمن.

– على أنه من الظلم لموليير أن نحكم عليه بذوق عصرنا وحده فالمؤرخون الأدبيون يجمعون على أنه ارتفع بالمسرح في عصره وأنقذه من المباذل والسخافات. وهذا ما لا ينكره إنسان . إلا أن هذا التقدير النسبي لا يكفي لتعليل الإسراف في التضخيم المصطنع الذي تعج به مواقف المسرحية . و يخطر للمرء

هنا تفسير غير نسبي . لماذا لا نقول أن شعور موليير بمرارة المأساة التي يعرضها من خلال ملهاته دفعه دائما إلى التعويض عن ذالك بافتعال الضحك ذلك لأن قصة أرباغون من أولها إلى ما قبل نهايتها مأساة بكل معنى الكلمة.

– ومنذ البدء يستنتج الإنسان أن وجود أرباغون ذاته خطأ مصيري لا يقتصر شره على صاحبه فحسب بل ينسحب على كل من يمت له بصلة. فإبناه يعانيان من تقتيره وتعنته وحرصه، ويبلغ اليأس بولده كليانت حافة الهاوية، وخدمه يعانون لا من سوء المعاملة فحسب بل حتى من الجوع، وخيوله هزيلة نحيلة لا تكاد تحملها قوائمها من قلة الغذاء، وهو في كل ما يفعله إنما يجني على الآخرين و ينحرف بمصائرهم و يضرب عليهم طوقا من التعاسة والكفر بالحياة، ومن المعروف أن هذا الجمع بين المعنى المأساوي والإخراج الهزلي ليس بدعا عند موليير، فالكوميديا الناجحة لا تغفل عنصر المأساة في حياة البشر بل وتدع الحبل موصولا بين الدمعة الحبيسة و الضحكة المجلجلة.

– ولكن الإضحاك ليس العنصر الوحيد في مسرحية موليير. فهناك الهجاء الاجتماعي للطبقة الوسطى المتهافتة على المال، وهناك النقد الواضح لتسلط الآباء على أبنائهم، وهناك العطف على الشباب و قضاياهم القلبية، وهناك إغواء الأحداث المتلاحقة و بريق المفاجآت الغريبة ، وهناك النهاية السعيدة التي ينتهي إليها الجميع والتي تحمل تبشيرا أخلاقيا واضحا بانتصار الصواب والحب والشباب والمستقبل وانهزام الخطأ والتعنت

والشره. وهناك بالدرجة الأولى و فوق كل شيء تلك الأضواء الفنية الساطعة التي سلطت على بطل الملهاة فجعلت منه نموذج البخيل في كل عصر وفي كل أرض وأتاحت للمشاهدين من مختلف الأجناس العصور أن يراقبوا حركاته وسكناته وأن يروا بأم أعينهم ما يؤدي إليه الشح والحرص من تعاسة ذاتية و قطع الصلة الرحم وتنكيل بالولد والصديق وانهيار نفسي واجتماعي. ولم يكن بخيل موليير نموذجا ثابتا بمعنى الكلمة، فقد كان هناك محرك خفي يدفعه إلى التطور باتجاه مزيد من الرذائل، فمع ازدياد حرصه وشحه كان يزداد مكرا وخسة وغرورا و حذرا واتهاما للآخرين ومقتا لهم، حتى بدا لنا في النهاية كتلة مجسمة من الأمراض النفسية القتالة. وفي أكثر من مناسبة استطاع موليير أن يصور هوسه الغريب بالدراهم، وكيف أن هذا الهوس يمثل الحقيقة الأساسية في حياته إنه لا يريد لأي درهم أن يخرج من جيبه مهما كانت الأسباب و إن من يطلب منه درهما كمن يشهر عليه سيفا.

وإن هناك ميزات أخرى ضمنت لملهاة موليير القبول لدي طبقات مختلفة من القراء، ومن بين هذه المميزات تدفق اللغة وحيوية العرض و دقة الإشارة إلى الطبيعة الإنسانية.